العرفان

مرتضى مطهري

دار المحجة البيضاء
الرسول الأكرم ص



التعرف على العلوم الإسلامية

العرفان

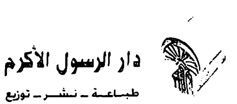
مرتضى مطهري

ترجمة
عبّاس نور الدين

دار المحجّة البيضاء
دار الرسول الأكرم «ص»

الطبعة الثانية

١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢ م



حارة حريك ـ خلف البلدية ـ تلفون :٠٣/٨١٤٢٩٤ ـ تلفاكس :٠١/٥٤١٩٣٠
ص.ب : ١١/٨٦٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم:

قراء العربية هم الآن على موعد آخر مع رحلة التعرف على العلوم الاسلامية الاصيلة عبر كتب الشهيد السعيد آية الله مرتضى مطهري الذي نهض منذ اكثر من نصف قرن حاملاً راية الدين الحنيف ومدافعا صلباً عن تعاليمه البنّاءة .

فمن جملة المشاكل التي يعاني منها مجتمعنا الاسلامي وجود تلك المسافة البعيدة التي تفصله عن المعارف والعلوم الاسلامية وحالة الغربة الكبيرة بينه وبين تعاليم الاسلام التي هي طريق الوصول إلى السعادة الحقيقية في مختلف مجالات الحياة .

لقد أدرك شهيدنا السعيد هذه المسألة جيداً وقام هو وثلة من أنصار الامام الخميني (قده) مستفيدين من أصالة

الحوزة العلمية المقدسة لينطلقوا داخل المجتمع الاسلامي وليعرضوا الاسلام بصورته المشرقة ولينفوا عنه تحريف المبطلين .

وكان الشهيد المطهري متميزاً عن غيره بعمق الفكرة وقوة البيان وروعة الاسلوب متفهماً لمشكلات المجتمع والشباب المسلم الذي احاطت به كل تيارات الانحراف والتغريب . وبقوة البصيرة والتوكل على المولى عز وجل قدم العلامة المطهري انجازات عظيمة لن تنطفىء شموع السنين الا وهي تسطع على كل العالم نوراً وهداية وارشاداً .

والكتاب الذي نضعه بين أيديكم هو عبارة عن جزء واحد من سلسلة كتب قام الشهيد بتأليفها لاجل تعريف الشباب على المعارف الاسلامية وبالأخص اولئك الذين يريدون الانتساب إلى الحوزات العلمية أو الدخول إلى الجامعات الاكاديمية . واستطاع برغم وجازته واختصاره أن يرفع العديد من نقاط الجهل ويبين الكثير من المسائل المرتبطة بالعلوم الالهية ومقدماتها وذلك بالاشارة إلى امهات مسائل العلم الذي يتعرض له .

ففي هذا الكتاب (العرفان) بين الشهيد المطهري الفرق ما بين العرفان والأخلاق واستطاع أن يثبت اصالة هذا العلم في جذوره الاسلامية ورد اقوال اولئك المتغربين الذين حاولوا نفي هذه الأصالة بطرق شتى .

وبعرضه التاريخي الموجز وشرحه لمنازل ومقامات العارفين في بداية السير والسلوك قدم الشهيد فكرة واضحة فيما يرتبط بالتراث العرفاني الاصيل وعلاقته بالتعاليم الالهية الغرّاء .

شخصية الشهيد العرفانية

من الأمور التي ما زالت خافية على الكثيرين ممن تعرفوا على الشهيد مرتضى المطهري وخاصة قراء العربية هو عرفان الشهيد أو شخصيته العرفانية .

اما اولئك الذين قدر لهم أن يتعرفوا من قرب على هذا العلامة النابغة فلا يساورهم أدنى شك في أن الشهيد كانت له حالات لا يمكن تفسيرها الا على أساس التوجهات العرفانية في البعدين النظري والعملي .

وهذا الجانب المهم لن يبقى مستوراً اذا توغلنا في كتاباته وتعرفنا على آثاره التي ترتبط بهذا الشأن من قريب أو بعيد .

وصحيح أن الشهيد لم يكتب على نسق العرفاء في كتاباتهم وتعليقاتهم واشاراتهم ولكن ما يظهر عند التدقيق في آرائه ـ ناهيك عن حياته العملية التي ختمت بأعلى مراتب العرفان ـ انه كان مطلعاً ومستوعباً لاعمق المسائل العرفانية وكان لهذا الأمر أثرٌ بالغٌ في كتاباته .

لم يهتم الشهيد في اضافة نسخ عرفانية ومخطوطات حكمية يقتصر فهمها على مجموعة من الذين أمضوا حياتهم في تحصيل المقدمات بل كان جل اهتمامه منصباً على اظهار جواهر كنوز الاسلام التي جاهد لأجلها الائمة المعصومون (ع) وقدموا انفسهم في سبيلها وما زالوا .

من جملة ما يمكن اعتباره أثراً تفوح منه رائحة العرفان القوية هذا المؤلف البسيط اضافة إلى كتاب «مشهد السر» (تماشاكاه راز أو عرفان حافظ) ، وشرحه للأسفار الأربعة تحت عنوان «حركت وزمان» ومجموعة محاضراته التي طبعت تحت عنوان «انسان كامل» وتعليقاته القيمة على «أصول الفلسفة والمذهب الواقعي» وخاصة الجزء الخامس الذي لم يترجم لحد الآن . وكذلك شروحاته المختلفة لمنظومة السبزواري الحكمية .

لقد عرف الشهيد في الفترات الماضية بعناوين مختلفة كالمفكر والفيلسوف والفقيه والمصلح . وجاء الوقت ليتعرف القراء الأعزاء عليه بعنوان العارف الشهيد مرتضى مطهري .

عباس نور الدين

٧ شوال/١٤١٢ هـ

الدرس الأول

العرفان والتصوف

إحدى العلوم التي نشأت في حضن الثقافة الإسلامية ونمت وتكاملت في ربوعها: علم العرفان .

وفي العرفان يمكن البحث والتحقيق من جهتين: الجهة الأولى من الناحية الاجتماعية ، والثانية من الناحية الفكرية والثقافية .

فللعرفاء اختلاف وتمايز مهم مع سائر الطبقات والفئات الثقافية الاسلامية من قبيل المفسرين والمحدّثين والفقهاء والمتكلمين والفلاسفة والأدباء والشعراء ، وهم إضافة إلى كونهم فئة ثقافية أسست علماً سمي بالعرفان وأخرجت علماء كباراً الفوا كتباً مهمة ، فقد أنشأوا فرقة اجتماعية في عالم الإسلام لها صفات وخصائص خاصة ، خلافاً لسائر الطبقات الفكرية الأخرى من قبيل الفقهاء والحكماء وغيرهم الذين

كانوا مجرد طبقة ثقافية لا يختلفون عن غيرهم بشيء آخر .

وعندما يراد الإشارة إلى أهل العرفان من الناحية الفكرية فإنه يطلق عليهم اسم «العرفاء» ، وإذا كان المراد الاشارة إلى الناحية الاجتماعية فانهم يعرفون بعنوان «المتصوفة» .

والعرفاء والمتصوفة لا ينظر إليهم على أنهم مذهب تشعّب عن الاسلام ، وهم أيضاً لا يدّعون مثل هذا الامر ، فهم حاضرون في كافة الفرق والمذاهب الاسلامية في نفس الوقت الذي يعتبرون جماعة متمايزة ، متصلة ومترابطة إجتماعياً ، ذلك ان المكونات العامة لأفكارهم ومعتقداتهم وحتى آدابهم الخاصة في المعاشرات واللباس وأحياناً في المظهر والزينة والجلوس في الخانقانات [وهي الاماكن الخاصة بالدراويش والصوفية] وغيرها من المسائل كل هذه أعطت صبغة خاصة للعرفاء ميّزتهم كأحدى الفرق المذهبية والاجتماعية .

بالتأكيد ظهر دائماً وما يزال ـ وخاصة بين الشيعة ـ عرفاء لا يتميزون بالظاهر عن الآخرين في شيء وهم في نفس الوقت من عمق أهل السير والسلوك العرفاني . وفي الحقيقة إن العرفاء الحقيقيون هم من أهل هذه الطبقة ، لا اولئك الذين اخترعوا من تلقاء أنفسهم مئات الآداب وابتدعوا ما شاءوا من البدع .

ونحن في هذه الدروس التي نبحث فيها حول كليات العلوم الاسلامية لن نتعرض للناحية الاجتماعية أو في الواقع للناحية «الصوفية» للعرفان ، بل سوف نقتصر في بحثنا على الجانب الفكري للعرفان كعلم أو كواحد من فروع االثقافة الاسلامية ، ولن ننظر إليه كإحدى الطرق والمناهج التي ظهرت على يد أتباع تلك الفرقة الاجتماعية .

لأننا لو أردنا أن نبحث من الناحية الاجتماعية ، فلا بد أن نتناول هذه الفرقة من جهة أسباب النشوء ومن جهة الدور الإيجابي أو السلبي ، المفيد أو الضار ، الذي لعبته داخل المجتمع الاسلامي ، وتأثير وتأثّر هذه الفرقة بغيرها من الفرق الاسلامية ، وأيضاً ماذا قدمت للمعارف الاسلامية وكيف أثرت في نشر الاسلام في العالم . وهذا ما لن ندخل فيه وإنما سوف نتناول العرفان فقط كعلم وكنشاط فكري وثقافي .

إذا نظرنا إلى العرفان كبناء علمي وثقافي وجدناه ينقسم إلى قسمين:

١ ـ القسم العملي .

٢ ـ القسم النظري .

١ ـ القسم العملي عبارة عن ذلك الجانب الذي يبين العلاقات والواجبات المفروضة على الانسان مع نفسه ومع

العالم ومع الله ، ويوضحها .

فالعرفان في هذا القسم مثل علم الأخلاق ، أي أنه «علم» عملي مع اختلاف وفرق سوف نبينه فيما بعد . ويسمى هذا القسم من العرفان «بالسير والسلوك» وفيه يُشار ويوضّح «للسالك» كيف يجب أن يبدأ ومن أين يسلك للوصول إلى قمة الانسانية المنيعة وهي «التوحيد» ، وما هي المنازل والمراحل التي ينبغي أن يطويها بالترتيب ، وفي هذه المنازل أثناء الطريق ماذا يجري عليه من أحوال وماذا ترد عليه من واردات . وبالتأكيد ينبغي للسالك أن يعبر هذه المنازل والمراحل تحت إشراف ومراقبة انسان كامل وناضج قد قطع هذا الطريق وأطّلع على رسومه ومعالمه ، فإذا لم تصاحبه وتلازمه عناية الانسان الكامل وهمته أثناء السفر فسوف تحيط به مخاطر الضلالة .

ويعبّر العرفاء عن الانسان الكامل الذي يلزم أن يرافق المسافر المبتدىء أحياناً «بطائر القدس» وأحياناً «بالخِضر» :

فيا «طائر القدس» اصحبني في سفري
فانا سالك مبتدىء والسفر بعيد
لا تدع «الخضر» في صحبة السفر
فخوفي من ظلمات خطر الضلال

وبالتأكيد فإن التوحيد الذي يلحظه العارف ويعده قمة الانسانية العليا وهو آخر مقاصد السير والسلوك يختلف عن

التوحيد العامي عند الناس وحتى عن توحيد الفيلسوف الذي يعتبر أن واجب الوجود واحد لا اكثر ، والفرق بينهم كالمسافة ما بين السماء والارض .

فتوحيد العارف ، هو أن الوجود الحقيقي منحصر بالله ، فكل ما عدا الله «مظهر» لا «وجود» . وتوحيد العارف هو «لا شيء إلا الله» . توحيد العارف يكون في طي الطريق والوصول إلى مرحلة لا يرى فيها الا الله .

ولا يقبل اولئك الذين يخالفون العرفاء هذا الفهم للتوحيد ، بل قد يصل بهم الأمر أحياناً إلى تكفيرهم واتهامهم بالالحاد . ولكن العرفاء يعتقدون بأن التوحيد الحقيقي هو هذا وأن سائر مراتب التوحيد الأخرى لا تخلو من الشرك . وبرأي العرفاء واعتقادهم فإن الوصول إلى هذه المرحلة لا يكون عبر إعمال العقل والتفكير ، بل يتم عبر القلب والمجاهدة والسير والسلوك وتصفية النفس وتهذيبها .

على أية حال إن هذا القسم من العرفان هو القسم العملي ، وهو من هذه الناحية مثل علم الأخلاق الذي يبحث بشأن تلك الأمور التي تدور في «ما ينبغي أن يكون» و«ما يجب أن يُعمل» مع الاختلافات التالية :

أولاً : يبحث العرفان حول علاقات الإنسان مع نفسه ومع العالم ومع الله ، وعمدة نظره تتجه نحو علاقة الانسان بالله . في حين أن كل الأنظمة الأخلاقية لا ترى ضرورة في

البحث حول علاقة الانسان مع الله ، نعم تولي الأنظمة الاخلاقية الدينية عناية بهذا الأمر .

ثانياً: يعتبر السير والسلوك العرفاني ـ كما هو ظاهر من مفهوم هاتين الكلمتين ـ متحركاً ، على خلاف الأخلاق التي يظهر منها السكون والجمود . فالعرفان يتحدث عن نقطة البدء وعن المقصد وعن المنازل والمراحل التي ينبغي أن يطويها السالك حتى يصل إلى المنزل النهائي .

وعند العارف هناك «صراط» للانسان واقعاً وبدون أي مجاز ، وهذا الصراط ينبغي أن يعبره ويطوي خلاله مرحلة إثر مرحلة ومنزلاً بعد منزل . والوصول إلى المنزل اللاحق لا يمكن أن يتحقق بدون عبور المنزل السابق .

ولهذا فان روح الانسان في نظر العارف مثل نبتة أو طفل وكماله في ذلك النمو الذي يحصل طبق نظام خاص . ولكن الحديث في الأخلاق يكون مجرد سلسلة من الفضائل من قبيل الصدق ، العدالة ، العفة ، الاحسان الانصاف والايثار وغيرها مما ينبغي للروح أن تتزين وتتجلى به . فبنظر الأخلاق تكون روح الانسان مثل منزل يجب أن يزيّن بمجموعة من النقوش والحلى والزينة بدون ان يكون هناك أية تراتبية في العمل ، سواء من البدء أو الانتهاء ، أنشرع من السقف أم من الجدران؟ واذا كان من الجدران فمن أية جهة يكون ذلك ؟ من فوق ام من تحت ؟

أما في العرفان فالأمر عكس ذلك ، فعندما تطرح العناصر الأخلاقية يكون ذلك متحركاً وبتعبير آخر ديناميكياً .

ثالثا: العناصر الروحية الأخلاقية محدودة بمعان ومفاهيم تكون في الغالب معروفة ، أما العناصر الروحية العرفانية فإنها واسعة جداً وعميقة . في السير والسلوك العرفاني يأتي الحديث عن سلسلة من الأحوال والواردات القلبية تنحصر فقط «بسالك الطريق» خلال المجاهدات وطي الطرق ، أما الآخرون فانهم لا يطلعون على هذه الأحوال والواردات .

٢ ـ القسم الآخر من العرفان (القسم النظري) يرتبط بتفسير الوجود ، أي معرفة الله والعالم والانسان . والعرفان في هذا القسم مثل الفلسفة التي تريد أن تفسر الوجود ، خلافاً للقسم الاول الذي يتجه (كالأخلاق) لتغيير الانسان . وكما في القسم الاول ، حيث يوجد اختلافات عديدة مع الأخلاق ، ففي هذا القسم أيضاً يوجد اختلافات مع الفلسفة . وسنقوم بتوضيح هذا المطلب في الدرس التالي .

الدرس الثاني

الدرس الثاني

العرفان النظري

الآن نقوم ببين وتوضيح نقسم ثني من نعرفن وهو نعرفن نظري .

نعرفن نظري يقوم بتفسير وجود . ويبحث بشأن له والعلم ولانسن .

فلعرفن يشبه لفلسفة لإلهية في هذ نقسم من جهة تفسير حقيقة وجود وتوضيحه . وكم أن نفلسفة لالهية موضوعً ومبدىء ومسائل . فإن نعرفن أيضً موضوعً ومسئل ومبدىء . ولكن لفلسفة من جهتهـ تستند في استدلالاتهـ على لمبدىء والاصول لعقلية فقط . أم العرفان فإنه يجعل المبادىء ولأصول لكشفية أصل الاستدلال ثم يقوم بتوضيحه بلغة لعقل وقلمه .

والاستدلالات لعقلية لفلسفية كلمطلب لتي تُكتب

بلغة ما وتُقرأ بنفس تلك اللغة الاصلية ، أما الاستدلالات العرفانية فهي كالمطالب التي تترجم عن لغة أخرى ، أي أن العارف يكتب بلغة العقل ما يشاهده بالقلب ويراه بتمام وجوده .

والتفسير العرفاني للوجود ، أو بعبارة أخرى الرؤية الكونية العرفانية للوجود تختلف من العمق عن التفسير الفلسفي للوجود .

فعند الفيلسوف الالهي يكون لله وجود بالأصالة وكذلك لغير الله ، إلا أن الله واجب الوجود وقائم بالذات ، وغير الله ممكن الوجود وقائم بالغير ومعلول لواجب الوجود . ولكن العارف يرى ان كل ما هو غير الله اشياء ، وإن كانت معلولة منه ، لا وجود لها ، بل أن وجود الله هو الذي يشمل كل شيء ، أي أن كل الأشياء أسماء وصفات وشؤون وتجليات لله تعالى ، لا أنها أمور مقابله .

ونوع الرؤية عند الفيلسوف غير تلك التي عند العارف . فالفيلسوف يريد أن يفهم العالم ، أي أنه يسعى لتكوين تصور صحيح وجامع نسبياً وكامل عن العالم في ذهنه . وعند الفيلسوف يكون الحد الأعلى لكمال الانسان هو في وصوله إلى تلك المرحلة التي يدرك فيها العالم كما هو موجود بعقله ، بحيث يكون العالم في وجوده وجوداً عقلياً ويصبح عالماً عقلياً . لهذا قيل في تعريف الفلسفة :

«صيرورة الانسان عالماً عقلياً مضاهياً للعالم العيني» .
وكأن الفيلسوف يصبح انساناً عالماً عقلياً شبيهاً بالعالم العيني [الخارجي] .

ولكن العارف لا شغل له بالعقل والفهم ، فهو يريد أن يصل إلى كنه وحقيقة الوجود الذي هو الله ويتصل به ويشاهده .

وعند العارف لا يكون كمال الانسان مجرد صورة عن الوجود في الذهن ، بل أن يرجع بقدم السير والسلوك إلى ذلك الأصل الذي جاء منه ، ويزيل أية فاصلة أو حجاب بينه وبين ذات الحق ، ويفنى في بساط القرب عن ذاته ويبقى به .

الأدوات التي يستخدمها الفيلسوف في حركته: العقل والمنطق والاستدلال ، ولكن الوسائل التي يستخدمها العارف هي: القلب والتصفية والتهذيب والحركة الباطنية .

وعندما نبحث عن الرؤية الكونية العرفانية فيما بعد ، سوف يتضح الفرق ما بينها وبين الرؤية الكونية الفلسفية .

العرفان والاسلام:

للعرفان في قسميه: العملي والنظري اتصال وثيق بالدين الاسلامي المقدس؛ لأن الاسلام ، كغيره من الأديان والمذاهب (بل أكثر منها) يبين علاقات الانسان بنفسه وبالله

وبالعالم ، ويقوم كذلك بتفسير وتوضيح الوجود .

وتطرح في هذا المجال قضية مهمة وتساؤل ملفت فيما يتعلق بما قدمه العرفان ومدى ارتباطه بما جاء في الاسلام .

وبالطبع فإن العرفاء المسلمين لم يدّعوا بتاتاً لأنفسهم مصادر غير الاسلام ، بل إنهم يتبرأون من هذه التهمة بشدة . وعلى العكس من ذلك يدّعون أنهم كشفوا الحقائق الاسلامية بنحو أفضل من الآخرين وأنهم هم المسلمون الحقيقيون . والعرفاء يستندون دائماً سواء في القسم العملي أو في القسم النظري إلى الكتاب والسنّة والسيرة النبوية وسيرة الأئمة وأكابر الصحابة . ولكن للآخرين وجهة نظر أخرى بشأنهم ونحن نذكر هذه الآراء بالترتيب التالي :

أ ـ نظرة جماعة من المحدّثين والفقهاء المسلمين : باعتقاد هذه الجماعة ان العرفاء ليسوا مرتبطين بالاسلام عملياً ، واستنادهم إلى الكتاب والسنة هو مجرد خداع للعوام لأجل جلب قلوب المسلمين نحوهم وأن لا علاقة للعرفان بالاسلام .

ب ـ نظرة جماعة من المجددين في العصر الحاضر : لهذه الجماعة نظرة سلبية تجاه الاسلام ، فهم يشجعون أي شيء قد تفوح منه رائحة «الإباحية»[1] ليكون ذلك خروجاً

---

(١) ويقصد بها الشهيد مطهري إباحة كل المحرمات .

على الاسـلام ونهضـة بـوجـه التعـاليم الاسـلاميـة . هؤلاء كالجماعة الأولى يعتقدون أن العرفاء لا ايمان لهم ولا ارتباط لعم بالإسلام في الواقع، بل ان العرفان والتصوف كان عبارة عن تلك النهضـة التي قامت بهـا الشعوب غيـر العربيـة ضد الاسلام والعرب تحت غطاء المعنويات ولباس الروحانية.

ولهذه الجماعة في مجال تضـاد العرفـان مع الاسـلام واختلافه وحدة رأي مع الجماعة الأولى ، إلّا أن الاختـلاف بينهمـا ينبع من أن الجمـاعـة الاولى تقـدس الاسـلام ولكن بسبب خوفها على المشاعر الاسلامية لعوام المسلمين قامت بالتهجم على العرفاء وحقرتهم من أجل إخراج العرفان بهذه الطريقة عن دائرة المعارف الاسلامية .

و لكن الجمـاعة الثـانيـة ـ وبسبب تميّـز الشخصيّـات العرفانيـة بحيث أن بعضها كـان عالميـاً ـ كانت تـريد إيجـاد وسيلة للتهجم على الاســلام وتحقيـره بقــولهم أن الافكـار البديعة والسامية للعرفان غريبة عن الثقافة الاسلامية والـدين الإسـلامي وهي إنمـا جــاءت من الخـارج . وبتعبيــر آخـر يقصدون بذلك القول أن أفكار الاسلام وتعاليمه أقل مرتبة من ذلك .

وادعت هـذه الطائفـة ان استناد العـرفـاء إلى الكتـاب والسنّة كان لمجرد التقية وخوفاً من العوام ، فهم كانوا يريدون أن يحافظوا على أنفسهم .

ج ـ نظرة الحياديين: ترى هذه الجماعة أن هناك الكثير من البدع والانحرافات التي يمكن ايجادها في العرفان والتصوف وخاصة في العرفان العملي الذي نشأ عنه فرق متعددة ، وهذه الانحرافات بعيدة كل البعد عن كتاب الله والسنة المعتبرة .

ولكنها تعتبر العرفاء مثل سائر الفئات الثقافية الاسلامية وكأغلب الفرق الاسلامية لديهم النية المخلصة التامة تجاه الاسلام وحتى انه لا يوجد في كلماتهم أي شيء يدل على تهجمهم على الاسلام ومخالفتهم له . نعم من الممكن العثور على سلسلة من الأخطاء كما يوجد هذا الأمر عند سائر الطبقات الثقافية الأخرى كالمتكلمين ، الفلاسفة ، المفسرين والفقهاء ، ولكن هذا لم يكن نتيجة لسوء النية .

إن مسألة مخالفة العرفاء للاسلام قد طرحت من جانب أفراد كان لهم نوايا خاصة تجاه الاسلام أو العرفان . فلو طالع الانسان ، بدون انحياز ، كتبَ العرفاء ، بشرط أن يكون عارفاً بلغتهم واصطلاحاتهم قد يجد أخطاء كثيرة ولكنه لن يشك أبداً في إخلاصهم للاسلام وعاطفتهم تجاهه .

نحن نرجح الرأي الثالث ونعتقد ان العرفاء لم يكن لديهم أي نوع من سوء النية ، في نفس الوقت يلزم أن يقوم بعض الأشخاص المتخصصين والمطلعين على العرفان والمعارف الاسلامية العميقة بالبحث وبدون تحيز في المسائل

العرفانية لمعرفة مدى تطابقها مع الاسلام .

الشريعة ، الطريقة ، الحقيقة

أحد موارد الاختلاف المهمة بين العرفاء وغيرهم وخاصة الفقهاء هو ما يتعلق بنظرية العرفاء الخاصة بشأن الشريعة والطريقة والحقيقة .

العرفاء والفقهاء متفقون على أن الشريعة (وهي مجموعة الاحكام والقوانين الاسلامية) مبنية على سلسلة من الحقائق والمصالح . والفقهاء يفسرون هذه المصالح عادة بأنها أمور توصل الانسان إلى السعادة وهي الحد الأعلى الممكن للاستفادة من المواهب المادية والمعنوية . ولكن العرفاء يعتقدون أن جميع الطرق تنتهي إلى الله وأن جميع المصالح والحقائق تكون من نوع الشرائط والامكانات والوسائل التي تسوق الانسان إلى الله تعالى .

الفقهاء يقولون أن هناك سلسلة من المصالح الخفية (المجهولة) وراء الشريعة (الاحكام والمقررات) ، وتلك المصالح هي بمنزلة العلل والروح للشريعة ، وأن السبيل الوحيد لنيل تلك المصالح والوصول إليها هو في ظل تطبيق أحكام الشريعة والعمل بها ويكتفون بهذا المقدار فقط . أما العرفاء فإنهم يعتقدون أن المصالح والحقائق المخفية في تشريع الأحكام هي من نوع المنازل والمراحل التي تسوق الانسان إلى مقام القرب الالهي والوصول إلى الحقيقة .

ج ـ نظرة الحياديين : ترى هذه الجماعة أن هناك الكثير من البدع والانحرافات التي يمكن ايجادها في العرفان والتصوف وخاصة في العرفان العملي الذي نشأ عنه فرق متعددة ، وهذه الانحرافات بعيدة كل البعد عن كتاب الله والسنة المعتبرة .

ولكنها تعتبر العرفاء مثل سائر الفئات الثقافية الاسلامية وكأغلب الفرق الاسلامية لديهم النية المخلصة التامة تجاه الاسلام وحتى انه لا يوجد في كلماتهم أي شيء يدل على تهجمهم على الاسلام ومخالفتهم له . نعم من الممكن العثور على سلسلة من الأخطاء كما يوجد هذا الأمر عند سائر الطبقات الثقافية الأخرى كالمتكلمين ، الفلاسفة ، المفسرين والفقهاء ، ولكن هذا لم يكن نتيجة لسوء النية .

إن مسألة مخالفة العرفاء للاسلام قد طرحت من جانب أفراد كان لهم نوايا خاصة تجاه الاسلام أو العرفان . فلو طالع الانسان ، بدون انحياز ، كتبَ العرفاء ، بشرط أن يكون عارفاً بلغتهم واصطلاحاتهم قد يجد أخطاء كثيرة ولكنه لن يشك أبداً في إخلاصهم للاسلام وعاطفتهم تجاهه .

نحن نرجح الرأي الثالث ونعتقد ان العرفاء لم يكن لديهم أي نوع من سوء النية ، في نفس الوقت يلزم أن يقوم بعض الأشخاص المتخصصين والمطلعين على العرفان والمعارف الاسلامية العميقة بالبحث وبدون تحيز في المسائل

العرفانية لمعرفة مدى تطابقها مع الاسلام .

الشريعة ، الطريقة ، الحقيقة

أحد موارد الاختلاف المهمة بين العرفاء وغيرهم وخاصة الفقهاء هو ما يتعلق بنظرية العرفاء الخاصة بشأن الشريعة والطريقة والحقيقة .

العرفاء والفقهاء متفقون على أن الشريعة (وهي مجموعة الاحكام والقوانين الاسلامية) مبنية على سلسلة من الحقائق والمصالح . والفقهاء يفسرون هذه المصالح عادة بأنها أمور توصل الانسان إلى السعادة وهي الحد الأعلى الممكن للاستفادة من المواهب المادية والمعنوية . ولكن العرفاء يعتقدون أن جميع الطرق تنتهي إلى الله وأن جميع المصالح والحقائق تكون من نوع الشرائط والامكانات والوسائل التي تسوق الانسان إلى الله تعالى .

الفقهاء يقولون أن هناك سلسلة من المصالح الخفية (المجهولة) وراء الشريعة (الاحكام والمقررات) ، وتلك المصالح هي بمنزلة العلل والروح للشريعة ، وأن السبيل الوحيد لنيل تلك المصالح والوصول إليها هو في ظل تطبيق أحكام الشريعة والعمل بها ويكتفون بهذا المقدار فقط . أما العرفاء فإنهم يعتقدون أن المصالح والحقائق المخفية في تشريع الأحكام هي من نوع المنازل والمراحل التي تسوق الانسان إلى مقام القرب الالهي والوصول إلى الحقيقة .

يعتقد العرفاء أن باطن الشريعة «طريق» ويسمونه «بالطريقة» ، ونهاية هذا الطريق هي «الحقيقة» أي التوحيد بالمعنى الذي أشرنا إليه سابقاً حيث يصل العارف فيه إلى تلك المرحلة من الفناء عن ذاته وترك أنانيته بالمطلق . ولهذا يعتقد العارف بثلاثة أشياء :

الشريعة .

الطريقة .

الحقيقة .

فالشريعة طريقة الوصول إلى الحقيقة .

أما طريقة تفكير الفقهاء ورؤيتهم للاسلام فسوف نشير إليها في دروس علم الكلام إن شاء الله .

فهم يعتقدون أن التعاليم الاسلامية يمكن اختصارها في ثلاثة أقسام :

الأول : قسم أصول العقيدة ، ويبحث في علم الكلام . ويلزم على الانسان أن يستخدم عند البحث عن الامور المتعلقة بأصول العقيدة طريق العقل ، والايمان الثابت الذي لا يتزلزل .

الثاني : قسم الأخلاق . في هذا القسم بيّن الاسلام سلسلة من التعاليم التي ينبغي للإنسان أن يتعامل معها عملياً كترك الرذائل الأخلاقية والتحلي بفضائلها . يقوم علم

الأخلاق ببيان هذه الأمور .

الثالث: قسم الأحكام الذي يرتبط بأعمال الانسان الخارجية ويتعهد علم الفقه أن يبين مثل هذه الأمور .

وهذه الأقسام الثلاثة منفصلة عن بعضها البعض . فالعقيدة ترتبط بالعقل والفكر ، وقسم الأخلاق يرتبط بالنفس والملكات والعادات النفسانية ، أما قسم الأحكام فيرتبط بالاعضاء والجوارح .

ولكن العرفاء لا يعتبرون أن مجرد الاعتقاد الذهني والعقلي في مجال العقائد هو أمر كاف ، فهم يدّعون أن على الانسان أن يصل إلى الأمور التي يجب أن يعتقد بها ويؤمن بها ، وينبغي العمل لازالة تلك الحجب بين الانسان والحقائق .

وفي القسم الثاني (الأخلاق) ، لا ينظر العرفاء إلى الأخلاق على أنها ساكنة ومحدودة ، فهم يقترحون بدلاً من الأخلاق العلمية والفلسفية ما يسمى «بالسير والسلوك العرفاني» الذي يتألف من أمور ومسائل خاصة .

أما في القسم الثالث (الأحكام) فلا اعتراض لديهم سوى أنهم في بعض الموارد الخاصة يشيرون إلى جملة من الأمور التي قد تؤخذ بأنها احاديث ضد الأحكام والأوامر الالهية .

ويعبر العرفاء عن هذه الاقسام الثلاثة بـ «الشريعة ، الطريقة ، الحقيقة» ، ويعتقدون أن الانسان ليس مجزءً ومركباً من ثلاثة أقسام أي البدن والنفس والعقل ، بل أن هذه الأجزاء في عين الاختلاف والتمايز عن بعضها البعض متحدة والنسبة بينها كنسبة الظاهر إلى الباطن ، وكذلك فإن الشريعة والطريقة والحقيقة أيضاً من هذا القبيل فأحدها ظاهر والآخر باطن والثالث باطن الباطن ، وبالإضافة الى هذا الاختلاف يعتبر العرفاء أن مراتب وجود الانسان أكثر من ثلاثة ، فهم يعتقدون بمراحل ومراتب ما وراء العقل وسوف نقوم بتوضيح هذه الأمور فيما بعد إن شاء الله .

الدرس الثالث

لكي نتعــرف على أي علم من العـلوم ، من الــلازم والضروري التوجه إلى تاريخه ومعرفـة التحولات التي مـرت عليه ، وأيضاً التعرف على الشخصيات التي حملته وورثته أو كان لها الفضل في ابتكاره ، وكـذلك الاطـلاع على الكتب الاساسية التي ألفت حول هذا العلم . وسوف نتعرض لهـذه المسائل في هذا الدرس والدرس الرابع .

المسـألة الأولى التي ينبغي طـرحها هنـا هي : هل أن العـرفان الإسـلامي هـو من قبيـل الفقـه والأصـول والتفسير والحديث ؟ أي أنه من العلوم التي استنبط المسلمون أصولها وأبنيتها وموادها الأصلية من الاسلام ، ثم اكتشفوا لها قواعد وضـوابط وأصول أم أنـه من قبيل الـطب والريـاضيـات التي وجدت لنفسها طريقاً إلى عالم الاسلام من الخـارج ثم وفي ظـل التمـدن والثقـافـة الاسـلاميـة نمت وتكـاملت على يـد

المسلمين ، أم أن هناك شقاً آخراً في القضية؟

العرفاء يختارون الشق الأول وليسوا مستعدين أبداً وبأي شكل من الأشكال أن يختاروا شقاً آخراً . . إلاّ أن لبعض المستشرقين نظرية يصرّون فيها على أن العرفان والأفكار العرفانية اللطيفة والعميقة قد دخلت جميعاً من خارج العالم الإسلامي إليه . فيقولون أحياناً أن جذوره مسيحية وأن الأفكار العرفانية قد نشأت نتيجة ارتباط المسلمين بالرهبان المسيحيين ، وأحياناً يعتبرونها ردة فعل ايرانية ضد الاسلام والعرب . وقد عدّها بعضهم حصيلة الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التي هي عبارة عن تركيب ما بين أفكار أرسطو وأفلاطون وفيثاغوروس والغنوسيين الاسكندريين وآراء اليهود والمسيحيين وعقائدهم ، واتجه البعض الآخر إلى اعتبارها من نتاج الأفكار البوذية . كما سعى مخالفو العرفان في العالم الاسلامي وما زالوا لأجل تثبيت نظريتهم في اعتبار كل من العرفان والتصوف غريبين عن الاسلام والقول بأن جذورهما غير اسلامية .

النظرية الثالثة تقول بأن العرفان قد أستوحى أصوله الاولى ـ سواء في مورد العرفان العملي أم في مورد العرفان النظري ـ من الاسلام ، ثم بيّن لهذه الاصول قواعد وضوابط ، هذا بالإضافة إلى استفادته من التطورات والتحولات الخارجية ـ خاصة الأفكار الكلامية الفلسفية

وبـالأخص الأفكار الفلسفيـة الإشراقيـة . أما إلى أيـة درجـة استـطاع العرفـاء أن يضعوا قـواعد وضـوابط صحيحـة لتلك الأصـول الإسلاميـة الأولى ؟ هل أن نجـاحهم كان في هـذا الجـانب على مستوى الفقهـاء أم لا؟ وإلى أية درجـة تقيدوا بعدم الانحراف عن الاصول الواقعية للاسلام؟

وكذلك ما هو مستوى تأثيـر التحولات الخـارجية على العرفان الاسلامي؟

هل جذب العرفان الاسلامي هذه الأمـور وهضمها ثم صبغها بصبغته واستفـاد منها في مسيـره ، أم على العكس ، فإن تلك التحولات تغلبت على هذا العلم لتجرفه في تيارها؟ هـذه جميعاً مـطالب ينبغي أن تبحث كل على حـدة وبشكل مفصل ودقيق . وما هو مسلَّم أن العرفان الاسلامي قـد أخذ أصوله الأساسية من الإسلام وفقط .

يدّعي أنصار النظرية الأولى ـ وتقريباً أصحاب النظرية الثانية ـ أن الاسلام دين بسيط ولا تكلّف فيه وعمـومي الفهم وهو خال من كل أشكال السر والغموض وصعوبة الفهم .

فـالاساس الاعتقـادي للاسـلام عبارة عن التـوحيـد . فالتوحيد في الاسلام يشبه المنزل ، وبنّاؤه موجود ومتمايز عن غيره ، فالعالم له صانع منفصل عنه . وأساس رابطة الانسان مع متاع الدنيا بنظر الاسلام هو الزهد . والزهد هو الإعراض عن متاع الدنيا الفانية لأجل الـوصول إلى النعيم الخـالد في

الآخرة . وإذا تجاوزنا هذه النقطة نصل إلى سلسلة من التعاليم البسيطة التي يتكفل (علم الفقه) ببيانها .

وبنظر هذه الطائفة فإن ما قاله العرفاء وتحدثوا به حول التوحيد هو غير التوحيد الاسلامي لان التوحيد العرفاني عبارة عن وحدة الوجود وأنه لا يوجد شيء غير الله وشؤونه واسمائه وصفاته وتجلياته . أما السير والسلوك العرفاني فهو أمر آخر غير الزهد الاسلامي حيث تطرح في السير والسلوك سلسلة من المعاني والمفاهيم من قبيل العشق وحب الله ، الفناء في الله ، تجلي الله على قلب العارف وهذا ما لا وجود له في الزهد الاسلامي . ثم يقولون أن الطريقة العرفانية هي خلاف الشريعة الاسلامية ، لأن فيها من الآداب والمسائل التي لا علم للفقه بها .

وترى هذه الجماعة أن خيرة أصحاب الرسول الاكرم (ص) الذين ينسب العرفاء والمتصوفة أنفسهم إليهم ويعدونهم أئمة لهم لم يكونوا أكثر من زهّاد لم يطلعوا على شيء من السير والسلوك العرفاني أو التوحيد الذي يعتقدون به . فقد كانوا رجالاً معرضين عن متاع الدنيا ومتوجهين إلى عالم الآخرة ، والأصل الحاكم على أرواحهم هو الخوف والرجاء: الخوف من عذاب جهنم ورجاء ثواب الجنة ، وفقط .

والحقيقة أن آراء هذه الطائفة ليست قابلة للتأييد أبداً .

فالأصول الاسلامية الأولى والتعاليم الأصلية أغنى بكثير مما افترضه هؤلاء لجهلهم أو تعمُّدهم . فليس التوحيد الاسلامي بهذه البساطة وعدم المضمون كما تحدثوا عنه ، ولا المعنويات الانسانية منحصرة في الاسلام بالزهد الجاف ، ولا أن خيرة أصحاب الرسول الاكرم قد كانوا على ما وصفوهم به وكذلك الآداب الاسلامية فهي ليست محدودة باعمال الجوارح والاعضاء .

ونحن في هذا الدرس سوف نبين بعض المطالب التي تظهر بصورة إجمالية أن التعاليم الاصيلة للاسلام قد استطاعت أن تكون ملهماً لسلسلة من المعارف العميقة في مورد العرفان النظري أو العملي . امّا أنه إلى أي مدى قد استفاد العرفاء المسلمون من هذه التعاليم وإلى أية درجة قد انحرفوا فإن هذا بحث لا يمكن إدراجه في مثل هذه الأبحاث القصيرة والمختصرة .

القرآن الكريم في باب التوحيد لا يصور الله والخلقة أبداً بشكل المنزل والبنّاء . القرآن يعرِّف الله بعنوان خالق العالم وفي نفس الوقت يقول أن ذاته المقدسة موجودة في كل مكان ومع كل شيء :

﴿**أينما تولوا فثم وجه الله**﴾ (البقرة/١١٥) .

﴿**ونحن أقرب إليه منكم**﴾ (الواقعة/٨٥) .

﴿**هو الأول والآخر والظاهر والباطن..**﴾ (الحديد/٣) .

وآيات أخرى من هذا القبيل .

ومن البديهي أن مثل هذه الآيات تدعو الاذهان إلى توحيد أرفع وأسمى من توحيد العوام . فقد جاء في رواية في كتاب الكافي : أن الله تعالى كان يعلم أنه سيأتي قوم في آخر الزمان متعمقون في التوحيد ولهذا أنزل سورة التوحيد ﴿**قل هو الله أحد**﴾ .

وفي مورد السير والسلوك وطي مراحل قرب الحق حتى آخر المنازل يكفي أن نلاحظ الآيات المتعلقة «بلقاء الله» و«رضوان الله» ، والآيات المرتبطة بالوحي والالهام وخطاب الملائكة مع غير الانبياء ـ كالسيدة مريم (ع) ـ وخاصة آيات المعراج للرسول الاكرم (ص) .

ونجد في القرآن الكريم أيضاً تلك الآيات التي تتحدث عن النفس الأمارة ، النفس اللوّامة والنفس المطمئنة ، وتلك التي تتحدث عن العلم الافاضي واللدني والهداية بكل مراتبها التي تحصل نتيجة المجاهدة:

﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا**﴾ (العنكبوت/ ٦٩) .

ففي القرآن ذكرت تزكية النفس بعنوان أنها العامل

الوحيد للفلاح والفوز:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس/٩ - ١٠) .

وفي الكتاب الشريف تكرر الحديث عن الحب الالهي الذي هو فوق كل العلاقات الانسانية . وذكر تسبيح وتحميد جميع ذرات العالم وإن كنا لا نفقه هذا التسبيح والتحميد . أما الإنسان فهو في فطرته نفخة إلهية .

لقد كانت هذه الآيات وغيرها كافية لتكون ملهماً للمعنويات العظيمة والواسعة في مورد الله والعالم والانسان ، وبالأخص في مورد علاقة الانسان بالله .

وكما أشرنا ، حديثنا هذا ليس لبيان صحة استفادة العرفاء المسلمين من هذه الأصول والرساميل أو عدم صحتها ، وإنما لدحض تلك الآراء المغرضة للغربيين والمتغربين الذين يريدون أن يظهروا الاسلام كدين لا محتوى ولا مضمون له من ناحية المعنويات . حديثنا يرتبط بالرأسمال العظيم الموجود في متن الاسلام والذي صار ملهماً جيداً في عالم الاسلام . وعلى فرض أن من يصطلح على تسميتهم بالعرفاء لم يتمكنوا من الاستفادة الصحيحة ، فإن اشخاصاً آخرين ليسوا مشهورين بهذا العنوان قد استفادوا استفادات صحيحة .

إضافة إلى أن الروايات والخطب والأدعية والاحتجاجات الاسلامية والتراجم التي تحكي عن أحوال العظام ممن تخرجوا من مدرسة الاسلام كل هذه تشير إلى أن ما كان في صدر الاسلام لم يكن مجرد الزهد المتحجّر أو العبادة لأجل الأجر والثواب .

فإننا نقف في الروايات والخطب والأدعية والإحتجاجات على معانٍ عظيمة جداً وهي في غاية السمو والرفعة . أما تراجم أحوال شخصيات مرحلة صدر الاسلام فانها تحكي عن سلسلة من الواردات الروحية والمكاشفات القلبية والحالات المعنوية . ونحن هنا نذكر واحدة منها .

جاء في الكافي :

عن أبي عبد الله عليه السلام : قال : استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري فقال له : كيف أنت يا حارثة بن مالك ؟ فقال : يا رسول الله مؤمن حقاً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لكل شيءٍ حقيقة فما حقيقة قولك ؟ فقال : يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت هواجري ، وكأني أنظر الى عرش ربي وقد وضع للحساب ، وكأني أنظر الى أهل الجنة يتزاورون في الجنة ، وكأني أسمع عواء أهل النار في النار ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «عبدٌ نوّر الله قلبه ، أبصرت

فـاثبت» فقال: يـا رسول الله ادع الله لي أن يـرزقني الشهادة معك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: اللهم ارزق حـارثة الشهادة ، فلم يلبث الا أيامـاً حتى بعث رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم سـرية فبعثـه فيها ، فقـاتل فقتـل تسعة ـ أو ثمانية ـ ثم قتل .

وهذه حياة وحالات وكلمات ومنـاجاة الـرسول الأكـرم صلى الله عليه وآله وسلم الزاخرة بـالعشق والسمو المعنـوي والالهي والمليئة بالاشارات العرفانية . فأدعيته صلى الله عليه وآله وسلم تنبض بالمعاني والاشارات التي يستند إليها العرفاء ويستشهدون بها .

وأميـر المؤمنين عليـه السـلام الـذي يتفق أغلب أهـل العرفان والتصوف على أن سلسلاتهم ترجع إليه وتبدأ منـه ، فإن كلماته أعظم ملهم في عالم المعنويات والمعرفة . ونشير هنا إلى نصّين وردا في نهج البلاغة:

في الخطبة ٢٢٠ يقول عليه السلام:

وإن الله سبحـانه وتعـالى جعل الـذكـر جـلاءً للقلوب تسمع به بعد الوقـرة وتبصر بـه بعد العشـوة ، وتنقاد بـه بعد المعاندة ، وما برح لله عزت آلاؤه في البرهة بعد البرهة وفي أزمـان الفترات عبـاد ناجـاهم في فكرهم وكلّمهم في ذوات عقولهم» .

وفي الخطبة ٢١٨ يصف عليه السلام السالك إلى الله :

«قد أحيى عقله وأمات نفسه حتى دق جليله ولطف غليظه وبرق له لامع كثير البرق فأبان له الطريق وسلك به السبيل وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة ، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه» .

وإذا نظرنا إلى الأدعية الإسلامية ، وخاصة الأدعية الشيعية التي هي كنوز المعارف ، من قبيل دعاء كميل ودعاء أبي حمزة الثمالي والمناجاة الشعبانية وأدعية الصحيفة السجادية لاطّلعنا على أعلى الأفكار المعنوية والمسائل الروحية .

فمع وجود كل هذه المصادر هل نبقى بحاجة إلى أن نبحث عن مصدر خارجي؟! .

وشبيه لهذا الأمر ما حدث في الحركة الإجتماعية المعارضة التي قام بها أبو ذر الغفاري ضد الظالمين في عصره . فقد قام هذا الرجل بالاعتراض بشدة والمخالفة بقوة ضد الظلم والتمييز الذي كان يحصل في زمانه وتحمل لأجل ذلك النفي والتبعيد والضرب والآلام حتى توفي آخر الأمر في المنفى والوحدة والغربة .

وقد طرح بعض المستشرقين هذا السؤال: من الذي

كـان محركـاً لأبي ذر؟ كان هؤلاء بصـدد البحث عن عـامـل خارج عالم الاسلام دفع أبا ذر وحرّكه في هذا المجال . يقول جورج جرداق المسيحي في كتاب «الامام علي صوت العدالة الانسانية» :

«أنني أتعجب من هؤلاء الأشخاص . حقاً إن ذلك مثل الذي نراه قرب النهر أو شاطىء البحر ثم نقول من أين أحضر هذا الشخص وعاء الماء ونتساءل أين هي البركة التي عبّأ منها ما لديه من ماء ، متعمدين إغفال النهر أو البحر؟

من أين يمكن لأبي ذر أن يستلهم خارج عالم الاسلام؟! وأي مصدر يمكن أن يكون بقدر الاسلام بحيث يحرك أبا ذر للقيام ضد الظالمين والمتجبرين أمثال معاوية؟!» .

إن نفس هذا الواقـع نشاهـده في موضـوع العرفـان . فالمستشرقون يبحثون عن مصدر ومنبع آخر غير الاسلام ألهم وحرك عالم المعنويات في العرفان غافلين أو متغافلين عن هذا البحر العظيم . أيمكننا أن ننكر كـل هذه المصـادر بدءاً من القرآن الكريم والأحاديث والخطب والاحتجـاجات والأدعيـة والسيرة لنؤيد بعض الفرضيات التي قدمها أولئك المستشرقون وأتباعهم الشرقيون؟!

ولحسن الحظ ، فقد جاء أخيراً أفراد أمثال نيكولسـون الانكليزي وماسينيون الفرنسي من الذين كانت لهم مطالعات واسعة في العرفان الاسلامي وهم مورد قبول الجميع ليعترفوا

بصراحة أن المصدر الأصلي للعرفان الاسلامي هو القرآن والسنة .

وبنقل كلمات نيكلسون نختم هذا الدرس .

فهو يقول :

«إننا نشاهد في القرآن تلك الآيات التي تقول: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ . ﴿وهو الأول والآخر﴾ و﴿لا اله الا هو﴾ و ﴿كل من عليها فان﴾ و﴿نفخت فيه من روحي﴾ و﴿لقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ و﴿أينما تولوا فثم وجه الله﴾ ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ وفي الحقيقة إن أصل وبذرة التصوف في هذه الآيات . فالقرآن لم يكن عند الصوفيين الاوائل مجرد كلمات من الله بل وسيلة للقرب منه . وبواسطة العبادة والتعمق في الأجزاء المختلفة للقرآن . وخاصة تلك الآيات اللطيفة التي ترتبط بالمعراج . كان الصوفيون يسعون للوصول إلى تلك الحالة الصوفية[١] للنبي وتحققها في ذواتهم»[٢] .

ويقول في مكان آخر:

---

(١) يستعمل أكثر المستشرقين كلمة التصوف للدلالة على العرفان أيضاً [المترجم] .

(٢) كتاب ميراث الاسلام تأليف جماعة من المستشرقين ص ٨٤ .

«إن أصول الوحدة في التصوف قد ذكرت في القرآن أكثر من أي مكان آخر . وكما يقول النبي أن الله تعالى قال: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها» .

وكما ذكرنا مرات عديدة ، ليس البحث في أن العرفاء والمتصوفة استطاعوا أن يستفيدوا ويستلهموا بشكل صحيح أم لا؟ وإنما البحث في أن منشأ هذه الإلهامات هل هو مصدر خارجي أم من نفس المتون الاسلامية .

الدرس الرابع

تاريخ موجز

خصصنا موضوع الدرس الماضي لمعرفة المصدر والمنبع الأصلي للعرفان الاسلامي؟ وهل يوجد في التعاليم الاسلامية والحياة العملية للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار أمور يمكن أن تكون ملهماً من الناحية النظرية لسلسلة من المعاني العرفانية اللطيفة والدقيقة ودافعاً من الناحية العملية للنشاطات الروحية وسلسلة الحركات والميول العرفانية والمعنوية أم لا؟ وكانت الاجابة ايجابية . والآن نكمل هذا البحث .

لم تكن المعارف الاسلامية الأصيلة والحياة الزاخرة بالمعنويات والتجليات الروحانية لأئمة الدين ـ والتي كانت ملهماً قوياً للمعنويات العميقة في عالم الإسلام ـ لم تكن منحصرة بما يعبر عنه إصطلاحاً بالعرفان أو التصوف ، غير أن بحثنا الآن يدور حول هذا الفرع من المعارف الاسلامية ولا

يتعداه إلى غيره من الفروع .

ومن البديهي أن حجم هذه الدروس لا يمكّننا من الغوص في التحقيق والنقد ، لذلك سوف نسعى هنا لتصوير الواقع الثقافي الذي أُجري على هذه الفروع . كذلك نجد من المناسب للمعرفة الابتدائية أن نشير في البداية إلى تاريخ مبسط للعرفان والتصوف منذ صدر الاسلام حتى القرن العاشر الهجري على الأقل ، ومن ثم نطرح المسائل العرفانية إلى الحد المتيسر هنا ، وفي النهاية نقوم بتحليل علمي ومراجعة للأصول العرفانية .

مما هو مسلّم في هذا المجال عدم وجود جماعة معروفة باسم العرفاء والصوفية في صدر الاسلام أو في القرن الأول للهجرة على الأقل بين المسلمين . ويقال أن أول من عُرف بهذا الاسم هو «ابو هاشم الصوفي الكوفي» الذي عاش في القرن الثاني للهجرة وأنه أول من بنى صومعة في الرملة بفلسطين لتقوم مجموعة من العبّاد والزهّاد المسلمين بالعبادة فيها (١) . إن تاريخ وفاة أبي هاشم ليس محدداً ، لكن

---

(١) تاريخ التصوف في الاسلام ، تأليف الدكتور قاسم غني ، صفحة ١٩ ، وفي هذا الكتاب صفحة ٤٤ ينقل عن كتاب «الصوفية والفقراء» لابن تيمية أن أول من بنى مكاناً خاصاً للصوفية هم بعض أتباع عبد الواحد بن زيد . وكان عبد الواحد بن زيد أحد اصحاب حسين البصري . فلو كان ابو هاشم الصوفي من اتباع عبد الواحد فلا تناقض ما بين الروايتين .

المعروف أنه كان استاذ سفيان الثوري المتوفي عام ١٦١ هـ .

يقول أبو القاسم القشيري أحد مشاهير العرفاء والصوفية: «إن هذا الاسم [التصوف] قد ظهر قبل سنة ٢٠٠ هـ» . ويقول نيكلسون أيضاً: «ان هذا الاسم قد ظهر في أواخر القرن الثاني للهجرة» . ويظهر من رواية وردت في باب «المعيشة» من كتاب الكافي الجزء الخامس أن جماعة (سفيان الثوري وآخرين) عُرِفَتْ في زمان الامام الصادق عليه السلام ، أي في منتصف القرن الثاني الهجري بهذا العنوان .

فاذا كان أبو هاشم الكوفي أول من عرف بهذا الاسم وهو استاذ سفيان الثوري المتوفي سنة ١٦١ هجري ، يكون النصف الأول من القرن الثاني هو زمن نشوء هذا الاسم لا أواخر القرن الثاني (كما ذكر نيكلسون وآخرون) . والظاهر عدم وجود شك في سبب تسمية الصوفية بهذا الاسم نسبة إلى لباس الصوف الذي كانوا يرتدونه .

لقد كان الصوفيون لأجل الزهد والاعراض عن الدنيا يتجنبون اللباس الناعم ويرتدون لباس الصوف الخشن .

أما بالنسبة لزمن تسمية هذه الطائفة «بالعرفاء» فليس لدينا اطلاع دقيق على هذا الأمر ، ولكن القدر المسلم ما ذكرناه . فمن النصوص التي نقلت عن سريّ السقطي

المتوفي سنة ٢٤٣ هـ يُعلم أن هذا الاصطلاح قد شاع وراج في القرن الثالث للهجرة ، ولكن ذُكِر في كتاب «اللُّمع» وهو من الكتب المعتبرة في العرفان والتصوف لأبي نصر سراج الطوسي جملة عن سفيان الثوري يستفاد منها أن هذا التعبير قد ظهر في حدود النصف الاول للقرن الثاني (اللمع ص ٤٢٧) .

على أية حال ، لم يكن في القرن الأول للهجرة أية جماعة معروفة بالصوفية ، وقد ظهر هذا الاسم في القرن الثاني ومن هناك صارت هذه الجماعة «فئة خاصة» .

مع أن القرن الأول للهجرة لم يعرف جماعة خاصة باسم العرفاء أو الصوفية أو أي اسم آخر ولكن هذا لا يصبح دليلاً على أن خيار الصحابة كانوا مجرد رجال زهّاد وعباد يعيشون درجة من الايمان الساذج مع فقدان الحياة المعنوية (كما يدّعي عادةً بعض الغربيين أو المتغربين) .

لعل بعض خيار الصحابة لم يكن لديهم سوى الزهد والعبادة ، ولكن ظهر فيهم من عاش الحياة المعنوية القوية . وهؤلاء أيضاً لم يكونوا بدرجة واحدة ، فحتى سلمان وأبو ذر لم يكونا على نفس الدرجة ، فقد كان لسلمان مستوى من الايمان لم يكن أبو ذر ليتحمله ، كما جاء في حديث عن كتاب سفينة البحار للمحدّث القمي (مادة سلم) : «لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله» .

والآن نذكر طبقات العرفاء والصوفية من القرن الثاني وحتى القرن العاشر .

عرفاء القرن الثاني:

أ - الحسن البصري : يبدأ تاريخ العرفان الاصطلاحي أيضاً مثل علم الكلام من الحسن البصري المتوفي سنة ١١٠ هـ .

فقد ولد الحسن البصري سنة ٢٢ للهجرة ، وعاش حوالي ٨٨ سنة قضى ٩ أعشارها في القرن الأول .

وبالطبع فإن البصري لم يعرف باسم «الصوفي» ، وانما عُدَّ واحداً منهم لانه ألّف كتاباً سماه «رعاية حقوق الله» يمكن تصنيفه كأول كتاب في التصوف . والنسخة الوحيدة لهذا الكتاب موجودة في اكسفورد . ويدّعي نيكلسون أن :

«أول مسلم كتب حول منهج حياة الصوفية كان الحسن البصري ، وقد بين طريقة في التصوف والوصول إلى المقامات العالية ما زال العلماء يشرحونها حتى اليوم : أولها التوبة ، تليها سلسلة من الاعمال الأخرى ينبغي أن يراعى فيها الترتيب للوصول إلى المقامات العليا»[1] .

---

(١) ميراث الاسلام ص ٨٥ - وأيضاً مراجعة محاضرات الدكتور عبد الرحمن البدوي في كلية الالهيات والمعارف الاسلامية لسنة ٥٢ - ٥٣ الدراسية . والنقطة الملفتة والبارزة هي وجود العديد من

الأمر الثاني أن العرفاء أنفسهم يرجعون بعض سلاسل الطريقة إلى الحسن البصري ومنه إلى حضـرة أمير المؤمنين عليه السلام: كسلسلة مشايخ أبو سعيد ابو الخير[1] . ويرجع ابن النديم في كتابه «الفهرست» الفن الخـامس من المقالـة الخـامسـة سلسلة أبي محمـد جعفـر الخُلدي إلى الحسن البصري أيضاً ويقول أن الحسن كان قـد أدرك ٧٠ رجلاً من أصحاب «بدر» .

والأمر الثالث أن بعض الحكـايات التي نقلت تبين أن الحسن البصري كان عملياً أحد أفراد جماعة عرفوا فيما بعد بالصوفية . وسوف ننقل فيما بعد بعض تلك الحكايـات في محلها .

هذا وكان الحسن البصري ايراني الاصل .

ب ـ مالك بن دينار: من أهل البصـرة ، كان معـروفاً بـالاتجاه الافـراطي في الزهـد وترك الملذات . وينقـل عنـه قصص عديدة في هذا المجال . توفي سنة ١٣١ هـ .

ج ـ إبـراهيم الأدهم: من أهل بلخ . ولهـذا الـرجـل

= كلمات ونصوص نهج البلاغة في تلك الرسالة . وتبرز هذه النقطة أيضاً إذا علمنا أن بعض الصوفية يـوصلون سلسلة أسانيـدهم عن طريق الحسن البصري إلى حضرة أمير المؤمنين عليه السلام .

(١) تاريخ التصوف في الاسلام ص ٤٦٢ . نقـلاً عن كتاب «حـالات وأحاديث ابي سعيد أبو الخير» .

قصة معروفة تشبه قصة بوذا . يقال أنه كـان في البدايـة أمير بلخ فحدث في حياته بعض الامور التي تاب على أثرها وصار أحد الصوفية .

ينـظر العـرفـاء إليـه بـاهتمـام بـالـغ . وقــد ذكـر في المثنــوي[1]لــه قصــة مهمــة . تــوفي إبــراهيـم حــوالي سنة ١٦١ هـ .

د ـ رابعة العدويّة: هذه المرأة مصرية الأصل أو بصرية وهي من عجائب الدهر ، ولانها كانت الرابعة من بين أخواتها سميت «رابعة» . وهي غير رابعة الشامية التي كانت أيضاً من العرفاء وقد عاصرت جامي (شاعر ايراني) وعاشت في القرن التاسع . لرابعة العدوية كلمات سامية واشعار في قمة العرفان وحـالات عجيبـة . وينقـل عنهـا قصـة تتعلق بعيـادة الحسن البصري ومالك بن دنيال وشخص آخر ، وهي قصة مميزة .

توفيت حوالي سنة ١٣٥ أو ١٣٦ ، وقد نقل البعض أن تاريخ وفاتها ما بين ١٨٠ و١٨٥ للهجرة .

هـ ـ أبو هاشم الصوفي الكوفي: من أهل الشام . وقد ولد في تلك المنطقة وعاش فيها . تاريخ وفاته بقي مجهولاً . والقـدر المعلوم عنـه أنـه استـاذ سفيــان الثـوري المتــوفي

---

(١) المثنوي ديوان شعر للشاعر مولوي يذكر فيه الابيـات مثنى مثنى . [المترجم] .

الأمر الثاني أن العرفاء أنفسهم يرجعون بعض سلاسل الطريقة إلى الحسن البصري ومنه إلى حضـرة أمير المؤمنين عليه السلام: كسلسلة مشايخ أبو سعيد ابو الخير[1] . ويرجع ابن النديم في كتابـه «الفهرست» الفن الخـامس من المقالـة الخـامسـة سلسلة أبي محمـد جعفـر الخُلدي إلى الحسن البصري أيضاً ويقول أن الحسن كان قـد أدرك ٧٠ رجلاً من أصحاب «بدر» .

والأمر الثالث أن بعض الحكـايات التي نقلت تبين أن الحسن البصري كان عملياً أحد أفراد جماعة عرفوا فيما بعد با لصوفية . وسوف ننقل فيما بعد بعض تلك الحكايـات في محلها .

هذا وكان الحسن البصري ايراني الاصل .

ب ـ مالك بن دينار: من أهل البصـرة ، كان معـروفاً بـالاتجاه الافـراطي في الزهـد وترك الملذات . وينقـل عنـه قصص عديدة في هذا المجال . توفي سنة ١٣١ هـ .

ج ـ إبـراهيم الأدهم: من أهل بلخ . ولهـذا الـرجـل

= كلمات ونصوص نهج البلاغة في تلك الرسالة . وتبرز هذه النقطة أيضاً إذا علمنا أن بعض الصـوفية يـوصلون سلسلة أسانيـدهم عن طريق الحسن البصري إلى حضرة أمير المؤمنين عليه السلام .

(١) تاريخ التصوف في الاسلام ص ٤٦٢ . نقـلاً عن كتاب «حـالات وأحاديث ابي سعيد أبو الخير» .

قصة معروفة تشبه قصة بوذا . يقال أنه كان في البداية أمير بلخ فحدث في حياته بعض الامور التي تاب على أثرها وصار أحد الصوفية .

ينظر العرفاء إليه باهتمام بالغ . وقد ذكر في المثنوي[1] له قصة مهمة . توفي إبراهيم حوالي سنة ١٦١ هـ .

د ـ رابعة العدويّة: هذه المرأة مصرية الأصل أو بصرية وهي من عجائب الدهر ، ولانها كانت الرابعة من بين أخواتها سميت «رابعة» . وهي غير رابعة الشامية التي كانت أيضاً من العرفاء وقد عاصرت جامي (شاعر ايراني) وعاشت في القرن التاسع . لرابعة العدوية كلمات سامية واشعار في قمة العرفان وحالات عجيبة . وينقل عنها قصة تتعلق بعيادة الحسن البصري ومالك بن دنيال وشخص آخر ، وهي قصة مميزة .

توفيت حوالي سنة ١٣٥ أو ١٣٦ ، وقد نقل البعض أن تاريخ وفاتها ما بين ١٨٠ و١٨٥ للهجرة .

هـ ـ أبو هاشم الصوفي الكوفي: من أهل الشام . وقد ولد في تلك المنطقة وعاش فيها . تاريخ وفاته بقي مجهولاً . والقدر المعلوم عنه أنه استاذ سفيان الثوري المتوفي

---

(١) المثنوي ديوان شعر للشاعر مولوي يذكر فيه الابيات مثنى مثنى . [المترجم] .

سنة ١٦١ هـ . والظاهر أنه أول انسان لُقب «بالصوفي» . يقول سفيان عنه: «لو لم يكن أبو هاشم لما عرفت دقائق الرياء» .

و ـ شقيق البلخي: كان تلميذاً لإبراهيم الادهم . وبناء على ما نُقل في كتاب «ريحانة الأدب» وغيره ككتاب «كشف الغمة» لعلي بن عيسى الأربلي وكتاب «نور الأبصار» للشَبلَنجي كان لشقيق البلخي شرف اللقاء بحضرة الامام موسى بن جعفر عليه السلام في طريق مكة وقد نقل عنه بعض المقامات والكرامات . تاريخ وفاته أختلف فيه ما بين ١٥٣ أو ١٧٤ أو ١٨٤ هـ .

ز ـ معروف الگرخي: من أهل گرخ بغداد ، ولكن بالنظر إلى أن اسم أبيه هو «فيروز» يبدو أنه ايراني الاصل . كان هذا الرجل من مشاهير العرفاء وأعرفهم . ويقال أن أباه وأمه كانا نصرانيين وقد اسلم على يد حضرة الامام الرضا عليه السلام وأستفاد منه .

ويعود الكثير من سلاسل الطريقة بحسب ادعاء العرفاء ، إلى معروف الكرخي وبواسطته إلى حضرة الامام الرضا عليه السلام وعن طريق حضرة الامام الرضا إلى الأئمة السابقين إلى أن يصل الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولهذا فان هذه السلسلة تسمى «بسلسلة الذهب» . وهذا ما يدّعيه الذهبيون بشكل عام . تاريخ وفاته ما بين سنة

٢٠٠ أو ٢٠٦ للهجرة .

ح - فضيل بن عيّاض: من أهل مرو . وهو ايراني عربي الاصل . يقال أنه كان في بداية حياته قاطع طريق ، وفي احدى الليالي كان يصعد على جدار لاجل سرقة منزل ، واثناء تسلقه سمع آية من أحد الذين كانوا يحيون الليالي فحصل في نفسه انقلاب عجيب وتاب من حينها .

وينسب كتاب «مصباح الشريعة» إليه وقيل ان الكتاب كان عبارة عن مجموعة من الدروس التي تلقاها على يدي الامام الصادق عليه السلام .

والمحدّث المتبحّر في القرن الأخير ، المرحوم الحاج ميرزا حسين النّوري اظهر في خاتمة «المستدرك» اعتماداً على هذا الكتاب . توفي فضيل سنة ١٨٧ هـ .

عرفاء القرن الثالث:

أ - بايزيد البسطامي (طيفور بن عيسى) من كبار العرفاء وهو من أهل بسطام . ويقال أنه أول من تحدث بالتصريح عن «الفناء في الله» و«البقاء بالله» . يقول بايزيد: «خرجت من بايزيد كما تنسلخ الافعى من جلدها» . وكان لهذا الرجل شطحات أدت إلى تكفيره . والعرفاء يسمونه ويصنفونه من أصحاب «الشكر» ، أي أنه قد تلفظ بتلك الكلمات في حالة الجذبة والذهول عن الذات . توفي بايزيد سنة ٢٦١ . وقد

أدّعى البعض أنه كان ساقيا عند الامام الصادق عليه السلام ولكن هذا الادعاء لا يتوافق مع التواريخ . فبايزيد لم يدرك عصر الامام الصادق عليه السلام .

ب ـ بشر الحافي : من أهل بغداد ، ووالداه كانا من أهل مرو . من مشاهير العرفاء . وقد كان أيضاً في البداية من أهل الفسق والفجور ثم تاب بعد ذلك .

ينقل العلامة الحلي في «منهاج الكرامة» قصة تبين أنه قد تاب على يدي حضرة الامام موسى بن جعفر عليه السلام ، ولأنه قدم إليه حافياً عرف ببشر الحافي . وقد ذكر بعضهم قصة أخرى لهذا اللقب . توفي ما بين سنة ٢٢٦ أو ٢٢٧ هـ .

ج ـ سريّ السَقَطي : من أهل بغداد . ولا نعلم إلى من يعود أصله . كان من اتباع ومحبّي بشر الحافي . تميز سري السقطي بمنهج الاشفاق على الخلق والايثار .

ويذكر ابن خلكّان في «وفيات الاعيان» أن سريّ السقطي قد استغفر الله لمدة ثلاثين سنة لانه قال يوماً «الحمد لله» . قيل: وكيف ؟ . قال: اندلع ذات يوم حريق داخل السوق ، فخرجتُ لأرى ان كان الحريق قد وصل إلى دكاني أم لا ؟ فقيل لي : ان الحريق لم يصل إليه ، فقلت الحمد لله .

ثم التفتّ فجأة أنني لم أكن مهتماً إلا بنفسي ولم التفت إلى مصلحة المسلمين؟ !

وقد ذكر سعدي هذه القصة في بعض أشعاره .

كان سري تلميذاً ومريداً «لمعروف الكرخي» واستاذاً لجنيد البغدادي وفي نفس الوقت خالاً له . وله كلمات كثيرة ونصوص عديدة في التوحيد والعشق الإلهي وغيرها ، وينقل عنه أيضاً هذا القول: « لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤه البر والفاجر ، كسحاب يظلل كل شيء وكالمطر يسقي ما ينبت وما لا ينبت» .

توفي سريّ سنة ٢٤٥ أو ٢٥٠ عن عمر يناهز الثمان والتسعين .

د ـ الحارث المحاسبي: بصري الأصل ومن محبي وأصحاب جنيد . وقد لُقب «بالمحاسبي» لأنه كان يهتم كثيراً بأمر المراقبة والمحاسبة . عاصر أحمد بن حنبل . ولأن أحمد بن حنبل كان عدواً لعلم الكلام ، فقد طرده لأنه كان من أهل هذا العلم ، وكان هذا الأمر سبباً لاعراض الناس عنه . توفي الحارث سنة ٢٤٣ هـ .

هـ ـ جنيد البغدادي: أصله من أهل نهاوند . يلقبه العرفاء والمتصوفة بـ «سيد الطائفة» ، كما يلقب الشيعة الشيخ الطوسي «بشيخ الطائفة» .

يعتبر جنيد أحد العرفاء المعتدلين . وما سُمع عن البعض من شطحات لم يسمع منه . حتى أنه لم يلبس ثياب أهل التصوف ، وإنما بقي محافظاً على زي العلماء والفقهاء . قيل له يوماً: مراعاة للاتباع والاصحاب لو تضع خرقة (لباس أهل التصوف) . قال: لو كنت أعلم ان اللباس يصنع شيئاً للبست ثياباً من الحديد الحامي . ولكن نداء الحقيقة هو: ليس الاعتبار بالخرقة وانما الاعتبار بالحرقة (حرقة القلب) . كان جنيد مريداً وتلميذاً لسري السقطي وأيضاً تلميذ الحارث المحاسبي . يقال أنه توفي سنة ٢٩٧ هـ عن عمر يناهز التسعين سنة .

و ـ ذو النون المصري: من أهل مصر . كان تلميذ «مالك بن أنس» الفقيه المعروف في الفقه . وقد عدّه جامي رئيس الصوفيين . وهو أول من استخدم الرموز ، وبيّن المسائل العرفانية بلغة المصطلحات الرمزية بحيث لا يفهمها الا أهلها . ثم شاع هذا الاسلوب ، وصارت المعاني العرفانية تبين بصورة الغزل والكلمات الخاصة . ويعتقد البعض أن الكثير من تعاليم الفلسفة الافلاطونية الحديثة دخلت إلى العرفان والتصوف بواسطة ذي النون[1] . توفي ذو النون ما بين سنوات ٢٤٠ ـ ٢٥٠ هـ .

---

(١) تاريخ التصوف في الاسلام ص ٥٥ .

ز ـ سهل بن عبد الله التستري: من كبار العرفاء والصوفية وهو بالأصل من أهل شوشتر. وقد عرفت فرقة من العرفاء الذين يؤكدون على أصل «مجاهدة النفس» باسم «السهلية» نسبة إليه. إلتقى في مكة المكرمة بذي النون المصري. تاريخ وفاته إما سنة ٢٨٣ أو سنة ٢٩٣ هـ[١].

ح ـ حسين بن منصور الحلّاج: يعود أصله إلى منطقة البيضاء من توابع شيراز، ولكنه عاش وتربى في العراق. والحلّاج من أكثر العرفاء الذين كثر فيهم اللغط والأقوال. وقد نقل عنه شطحات كثيرة، واتهم بالكفر والارتداد وادعاء الالوهية، فكفره الفقهاء ثم شنق في زمن المقتدر العباسي. والعرفاء أنفسهم يتهمونه بافشاء الأسرار.

وقد عدّه البعض من المشعوذين. ولكن العرفاء يبرئونه ويقولون أنه مثل بايزيد قد نطق بتلك الكلمات التي تشعر بالكفر في حال السكر والذهول.

يطلق العرفاء عليه لقب «الشهيد». شنق في سنة ٣٠٦ أو ٣٠٩ هـ[٢].

---

(١) طبقات الصوفية لابي عبد الرحمن الشلمي، ص ٢٠٦.

(٢) في مقدمة الطبعة الثامنة من كتاب «الدوافع نحو المادية» قمنا ببحث مفصل نسبياً حول الحلاج، ونقضنا أقوال بعض الماديين الذين حاولوا أن يظهروا الحلّاج كأحد الماديين.

الدرسان الخامس والسادس

تاريخ موجز
٢

عرفاء القرن الرابع:

أ ـ أبو بكر الشِبلي: كان تلميذاً ومريداً لجنيد البغدادي وقد أدرك الحلاج أيضاً وهو من مشاهير العرفاء. يعود أصله إلى منطقة خراسان. وقد نقل عنه في كتاب «روضات الجنات» وسائر كتب التراجم أشعاراً وكلمات عرفانية عديدة. ذكر الخواجة عبد الله الأنصاري أن أول من تحدث بلغة السر والرمز كان ذو النون المصري، وعندما جاء جنيد نظم هذا العلم ووسّعه وألف كتباً في هذا المجال، وعندما وصل الدور إلى الشبلي حمل هذا العلم وأوصله إلى أعلى الدرجات. توفي الشبلي ما بين سنوات ٣٣٤ ـ ٣٤٤ عن عمر يقارب ٨٧ سنة.

ب ـ أبو علي الروذباري: يعود نسبه إلى انوشيروان وهو ساساني الأصل . كان مريداً لجنيد ، درس الفقه على يدي أبي العباس بن شريح والأدب في محضر «ثعلب» . عرف عنه أنه كان جامعاً للشريعة والطريقة والحقيقة . توفي سنة ٣٢٢ هـ .

ج ـ أبو نصر سرّاج الطوسي: صاحب الكتاب المعروف «اللمع» الذي يعد من المتون الأصيلة والقديمة والمعتبرة في العرفان والتصوف . توفي سنة ٣٧٨ في طوس . وكان الكثير من مشايخ الطريقة من تلامذته المباشرين أو غير المباشرين . يدّعي البعض أن قبره موجود في مقبرة تقع في أسفل شارع مشهد باسم قبر بير بالان دوز المعروف .

د ـ أبو الفضل السرخسي: من أهل خراسان وأحد تلامذة أبي نصر السرّاج ومريديه . وهو أستاذ أبي سعيد أبو الخير العارف المشهور . توفي سنة ٤٠٠ للهجرة .

هـ ـ أبو عبد الله الروذباري: وهو ابن أخت أبو علي الروذباري ويعد من عرفاء الشام وسوريا . توفي سنة ٣٦٩ هـ .

و ـ أبو طالب المكي: تعود شهرة هذا العالم إلى كتاب ألّفه في العرفان والتصوف تحت عنوان «قوة القلوب» . طبع هذا الكتاب وهو من أقدم الكتب العرفانية والصوفية والأصيلة . وهو في الأصل من بلاد جبل ايران ، وإنما عرف

سنتي ٣٨٥ و٣٨٦ هـ .

عرفاء القرن الخامس:

أ- الشيخ أبو الحسن الخَرقاني: أحد أشهر العرفاء . وينسب العرفاء إليه قصصاً عجيبة . من جملتها أنه كان يزور قبر بايزيد البسطامي ويتصل بروحه ملتمساً حل مشكلاته . ويذكر مولوي هذه الحادثة في أبيات شعرية ، ويكثر في أماكن أخرى ذكره مظهراً تعلقاً وحباً شديداً له . ويقال أنه قابل أبا علي سينا الفيلسوف المعروف وأبا سعيد ابو الخير العارف . توفي سنة ٤٢٥ هـ .

ب- أبو سعيد أبو الخير النيشابوري: من اكثر العرفاء شهرة وأعرفهم بالحالات وله رباعيات مميزة . «سئل يوماً: ما هو التصوف؟ فقال: التصوف هو أن تخفي ما في سرِّك وتعطي ما في يدك ، وتحفظ ما يعرض عليك» . وكان له لقاءات عديدة مع ابن سينا . ويذكر أن ابن سينا كان يحضر يوماً مجلس وعظ لابي سعيد . وتحدث أبو سعيد عن ضرورة العمل وآثار الطاعة والمعصية . فأنشد ابن سينا أبياتاً أظهر فيها أن الاستناد ينبغي أن يكون على رحمة الله لا على أعمالنا (بما ترجمته):

نحن الذين نتولى عفوك

ومن الطاعة والمعصية قد تبرأنا

فهناك حيث عنايتك تكون
يكون العمل مثل اللاعمل

فأجابه أبو سعيد على الفور (ما ترجمته):

يا من لم يفعل الخير بل السيئات
وأنت خلاصك تتمنى
لا تستند إلى العفو فهو لن يكون
وأنت تساوي العمل باللاعمل

وينقل عنه أيضاً (ما ترجمته):

هناك في الغد حيث تزول الجهات الست
يصبح قدرك بقدر المعرفة
فاسع إلى حسن الصفة ففي يوم الجزاء
يكون حشرك على صورة الصفة

توفي ابو سعيد سنة ٤٤٠ هـ.

ج - أبو علي الدقّاق النيشابوري: من الذين جمعوا ما بين الشريعة والطريقة. كان واعظاً ومفسراً للقرآن. ولأنه كان شديد البكاء في المناجاة فقد لقب «بالشيخ النائح». توفي سنة ٤٠٥ أو ٤١٢ هـ.

د- أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري الغزنوي صاحب كتاب «كشف المحجوب» الذي يعد من الكتب المشهورة لهذه الفرقة وقد طبع مؤخراً. توفي سنة ٤٧٠ هـ.

هـ . الخواجة عبد الله الأنصاري : عربي الأصل ويعود نسبه إلى أبي أيّوب الأنصاري الصحابي المعروف . وهو من أكثر العرفاء شهرة وتعبداً . وله كلمات قصار ومناجات ورباعيات مميزة ومؤثرة ، وتعود شهرته في الاكثر إلى تلك الكلمات .

من كلماته (ما ترجمته) : «طفلا لعبتَ ، شاباً سكرتَ ، شيخاً ضعفت ، فمتى الله عبدتَ ؟» .

ولد عبد الله في مدينة هرات وتوفي فيها سنة ٤٨١ ودفن هناك ، ولهذا عرف «بشيخ هرات» .

وقد ألف كتباً عديدة . أشهرها كتاب تدريسي في السير والسلوك ويعتبر من انضج الكتب العرفانية وهو كتاب «منازل السائرين» وضع عليه شروحات كثيرة .

و ـ الامام أبو حامد محمد الغزالي الطوسي : من أشهر علماء الاسلام . ذاع صيته في الشرق والغرب . جمع المنقول والمعقول وأصبح رئيس جامع النظاميّة في بغداد وحاز على أعلى منصب روحاني في زمانه . ولكنه شعر أن كل تلك المعلومات وكل ذلك المنصب لم يشبع روحه . فاعتزل الناس واشتغل بتهذيب نفسه وتصفيتها . وبقي في بيت المقدس عشر شنوات بعيداً عن عيون معارفه . وهناك اتجه نحو العرفان والتصوف ولم يعد أبداً إلى المناصب والجاه . ألف كتابه المعروف «إحياء علوم الدين» بعد تلك

طوس .

عرفاء القرن السادس:

أ ـ عين القضاة الهمداني : من أكثر العرفاء حماسة . كان مريداً لأحمد الغزالي الأخ الاصغر لمحمد الغزالي الذي كان عارفاً أيضاً . ألف كتباً عديدة وله أشعار لا تخلو من شطحات . وأدى ذلك إلى تكفيره وقتله ثم أحرق جسده ونثر رفاته ادراج الرياح . قتل في حدود ٥٢٥ أو ٥٣٣ هـ .

ب ـ أحمد جامي المعروف بـ «جنده بيل» . من مشاهير العرفاء والصوفية . يقع قبره في «تربة جام» قرب الحدود الايرانية الافغانية . وله أشعار كثيرة في السلوك العرفاني . توفي حوالى سنة ٥٣٦ هـ .

ج ـ عبد القادر الجيلاني : ولد في شمال ايران وعاش وتربى في بغداد حيث دفن بعد وفاته . إعتبره البعض من أهل «جيل» بغداد لا من جيلان إيران . من الشخصيات التي كثر الكلام حولها في عالم الإسلام . والقادرية من السلاسل الصوفية التي تنسب إليه . قبره في بغداد معروف ومشهور . وينقل عنه الكثير من الادعاءات والشطحات ، وهو من السادة الحسينيين ، توفي ما بين سنتي ٥٦٠ و٥٦١ .

د ـ الشيخ روزبهان البقلي الشيرازي: معروف

«بالشيخ الشطاح» نسبة إلى كثرة شطحاته . وقد طبع له مؤخرا بعض المؤلفات بواسطة المستشرقين توفي سنة ٦٠٦ هـ .

عرفاء القرن السابع:

ربّى هذا القرن الكثير من العرفاء العظام . ونحن هنا نذكر مجموعة منهم على حسب تواريخ وفياتهم .

أ - الشيخ نجم الدين كبراي الخوارزمي . من مشاهير العرفاء وأكابرهم . وإليه تنتهي العديد من السلاسل . كان تلميذاً ومريداً وصهراً للشيخ روزبهان البقلي الشيرازي . وقد ربّى العديد من التلامذة والسالكين ، من جملتهم «بهاء الدين وَلَد» والد مولانا المولوي الرومي . عاش الشيخ نجم الدين في خوارزم ، وعاصر الحملة المغولية . وعندما أراد المغول أن يهجموا على منطقته ارسلوا إليه برسالة سمحوا له فيها بالخروج من المدينة مع أهله . فأجابهم قائلاً: «انا الذي عشت مع أهل هذه المدينة في الرخاء لا أتركهم في الضراء» . ثم حمل سلاحه وقاتل مع شعبه حتى استشهد . جرت هذه الواقعة سنة ٦١٦ هـ .

ب - الشيخ فريد الدين العطار: من عرفاء الدرجة الأُولى . وله تأليفات شعرية ونثرية . وكتابه «تذكرة الأولياء» ، الذي يشرح فيه أحوال العرفاء والمتصوفة يبدأ من الامام الصادق عليه السلام ويختمه عند الامام الباقر عليه السلام وهو يعتبر من المصادر المهمة التي يوليها المستشرقون عناية

كثيرة . كما أن كتابه «منطق الطير» ، يعد من أروع المؤلفات العرفانية .

يقول مولوي بشأنه وبشأن سنائي (ما ترجمته) :

عطار كان روحاً وسنائي عينيه
ونحن نسلك وراء سنائي وعطار

وأيضاً (ما ترجمته) :

عطار قد طوى مدن العشق السبع
ونحن ما زلنا في أول الزقاق

ويقصد مولوي من مدن العشق السبع تلك الوديان السبعة التي ذكرها العطار في «منطق الطير» .

كان العطار تلميذاً ومريداً للشيخ مجد الدين البغدادي الذي كان بدوره أحد تلامذة الشيخ نجم الدين كبرا . وأدرك أيضاً صحبة قطب الدين حيدر ـ الذي كان أيضاً من مشايخ العصر ودفن في التربة الحيدرية وهي مدينة سميت باسمه .

توفي العطار مع حملة المغول ، ويقال أنه قتل على أيديهم حوالي سنة ٦٢٦ ـ ٦٢٨ هـ .

ج ـ الشيخ شهاب الدين السهروردي الزنجاني : صاحب الكتاب المعروف «عوارف المعارف» الذي هو أحد المتون العرفانية والصوفية الجيدة . يعود نسبه إلى أبي بكر . ويقال أنه كان يزور مكة والمدينة كل عام . كان له لقاءات

ومحادثات مع عبد القادر الجيلاني .

كان الشاعر سعدي الشيرازي وكمال الدين اسماعيل الاصفهاني الشاعر المعروف من مريديه .

والسهروردي هذا هو غير الشيخ شهاب الدين السهروردي الفيلسوف المقتول المعروف بشيخ الاشراق الذي قتل حوالي سنة ٥٨١ أو ٥٩٠ في حلب .

توفي السهروردي العارف حوالي سنة ٦٣٢ هـ .

د ـ ابن الفارض المصري : يعد من عرفاء النمط الأول . وله أشعار عربية عرفانية في غاية الكمال ومنتهى العمق . طبع ديوانه عدة مرات وقد شرح أيضاً مرات عديدة . أحد الذين قاموا بشرح ديوانه «عبد الرحمٰن جامي» العارف المشهور في القرن التاسع .

ويمكن مقارنة أشعاره العرفانية في العربية مع اشعار حافظ العرفانية باللغة الفارسية . طلب محي الدين العربي منه ذات يوم أن يقوم بكتابة شرح على أشعاره . فأجابه : كتابك «الفتوحات المكية» شرح هذه الأشعار .

كان ابن الفارض أحد الاشخاص الذين كانت لهم أحوال غير عادية ، وكان غالباً في حال الجذبة فأنشد اكثر أشعاره في تلك الحالة . توفي ابن الفارض سنة ٦٣٢ هـ .

هـ ـ محي الدين العربي الحاتمي الطائي الأندلسي :

يعود نسبه إلى حاتم الطائي المعروف . ولد في الاندلس ، ولكن يظهر أنه قضى أكثر عمره في مكة وسوريا . من تلامذة الشيخ أبو مدين المغربي الأندلسي أحد عرفاء القرن السادس . وترجع سلسلة طريقته بواسطة ما إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني السابق الذكر .

من المسلم أن محي الدين الملقب بابن العربي كان أعظم عرفاء الاسلام . فلم يصل أحد إلى ما وصل إليه لا من قبله ولا من بعده . ولهذا لقب «بالشيخ الأكبر» .

كان العرفان الاسلامي يتكامل من قرن إلى قرن . وفي كل قرن كان يظهر عرفاء عظام يضيفون إلى رأسماله شيئاً جديداً ويعطونه درجة من التكامل بحيث كان هذا التكامل تدريجياً . ولكن العرفان وصل إلى أوج كماله على يد محي الدين العربي ، منتقلاً بذلك من السير التدريجي إلى النقلة النوعية .

لقد أدخل محي الدين العرفان إلى مرحلة جديدة لم يكن لها نظير . وبواسطته تأسس القسم الثاني من العرفان وهو القسم النظري والفلسفي وصار العرفاء من بعده يتزودون من مأدبته . وإضافة إلى هذا الانجاز العظيم فقد كان محي الدين من عجائب الدهر ، انسان محير ومدهش ، ولهذا الأمر كان عرضة للأقاويل المتضادة .

فالبعض يعده الولي الكامل وقطب الأقطاب والبعض

يقف في الجهة المقابلة فينزلوه إلى حد الكفر ، ويلقبوه بمميت الدين أو ماحي الدين . كان صدر المتألهين الفيلسوف العظيم والنابغة الكبير يكن له فائق الاحترام ، وهو في نظره أعظم بكثير من أبي علي سينا أو الفارابي .

لقد ألف محي الدين أكثر من مئتي كتاب . وقد طبعت كافة الكتب أو جميعها (حوالي ٣٠ كتاب) من النسخ التي عثر عليها . يعتبر «الفتوحات المكية» أحد أهم كتبه ، وهو كتاب كبير جداً وبحجم دائرة معارف أو موسوعة عرفانية . والكتاب الآخر هو فصوص االحكم الذي مع صغر حجمه يعد من أدق وأعمق المتون العرفانية ، وقد وضع عليه الكثير من الشروحات ، ولعله لا يظهر في كل عصر أكثر من اثنين أو ثلاثة ممن يمكنهم أن يفهموه .

توفي محي الدين سنة ٦٣٨ هـ في دمشق ودفن هناك . وقبره ما يزال حتى الآن معروفاً .

و ـ صدر الدين محمد القونوي : من أهل قونيّة (تركية) وهو تلميذ ومريد وابن زوجة محي الدين العربي . عاصر الخواجة نصير الدين الطوسي والشاعر المولوي الرومي . وجرت بينه وبين الخواجة الطوسي سلسلة من المراسلات وكان الطوسي يكن له الاحترام ، كذلك كانت تربطه علاقة حميمة مع المولوي في قونيه . كان القونوي يؤم المصلين في الجماعة فيأتي اليه المولوي ، والظاهر ـ كما ينقل ـ أن

المولوي كان تلميذه وأن العرفان المحي الديني الذي يظهر في أشعاره انما كان نتيجة الدروس التي تلقاها منه . يروى أنه دخل ذات يوم على محضر القونوي . فتحرك القونوي من مسنده وأعطى مكانه للمولوي ليجلس . قال المولوي: بماذا أجيب الله إذ أنا جلست مكانك؟ فأبعد القونوي المسند وقال: إن المسند الذي لا تجلس عليه حقيق علي أن لا ألمسه .

يعتبر القونوي أفضل شارح لأفكار محي الدين ، ويمكن القول أنه لو لم يكن موجوداً لما أمكن فهم محي الدين . وتعرُّف المولوي على مدرسة محي الدين إنما كان من خلال القونوي ، فعندما يقال أن المولوي كان تلميذ القونوي فذلك بما يرتبط بأخذ أفكار محي الدين: هذه الأفكار التي ظهرت في المثنوي وفي ديوان شمس (التبريزي). تعتبر كتب القونوي من الكتب الدراسية العرفانية في الحوزة طيلة ستة قرون .

من كتبه المعروفة: مفتاح الغيب ، النصوص ، الفكوك . توفي القونوي سنة ٦٧٢ (أي سنة وفاة المولوي والخواجة نصير الدين) أو سنة ٦٧٣ هـ .

ز- مولانا جلال الدين محمد البلخي الرومي: المعروف بالمولوي صاحب الكتاب العالمي «مثنوي»[1] .

---

(١) وهو عبارة عن ديوان شعر كتبت أبياته مثان مثان .

من أعظم عرفاء الاسلام ومن نوابغ العالم . يعود نسبه إلى أبي بكر . ويعتبر ديوانه المذكور بحراً من الحكمة والمعرفة مليئاً بالنكات العرفانية الدقيقة والمسائل الاجتماعية والفكرية ، وهو من شعراء النمط الأول في ايران . أصل المولوي من أهل بلخ[1] ، وفي طفولته غادر وأبوه تلك المدينة لزيارة بيت الله . وقد إلتقى فريد الدين العطار في نيشابور . ومن مكة رجعا إلى قونية حيث أقاما فيها . كان المولوي في البداية عالماً ، ومثل العلماء الآخرين مشغولاً بالتدريس ويعيش حياة محترمة إلى أن التقى يوماً «بشمس التبريزي» العارف المشهور ، وكان هذا اللقاء بمثابة الجذبة الكبرى التي انسته كل شيء .

له ديوان غزلي سمّاه باسم الشمس . وفي «مثنوي» يكرر ذكر استاذه بحرقة وحنين . توفي المولوي سنة ٦٧٢ .

ح - فخر الدين العراقي الهمداني : شاعر معروف وصاحب الغزليات المشهورة ، كان تلميذاً عند صدر الدين القونوي ومريداً وربيباً لشهاب الدين السهروردي الذي مر ذكره . توفي سنة ٦٨٨ هـ .

---

(١) مدينة في افغانستان .

عرفاء القرن الثامن:

أ ـ علاء الدولة السمناني: كان في بداية الأمر يعمل في الديوان [كاتب عدل. . .] ثم اعتزل هذا العمل ودخل في سلك العرفاء وصرف كل ثروته في سبيل الله. ألّف العديد من الكتب. وله في العرفان النظري آراء خاصة تطرح عادة في الكتب العرفانية المهمة. توفي سنة ٧٣٦.

كان الخواجوي الكرماني الشاعر المعروف من مريديه، وقد مدحه في أشعاره.

ب ـ عبد الرزّاق الكاشاني: من العرفاء المحققين في هذا القرن. وقد قام بشرح الفصوص لمحي الدين ومنازل السائرين للخواجة عبد الله، طبع كل منهما، والكتابان يحوزان على اهتمام أهل التحقيق.

وبناءً على ما نقله صاحب «روضات الجنات» في ذيل أحوال الشيخ عبد الرزاق اللاهيجي، نجد الشهيد الثاني يغرق في الثناء على عبد الرزاق الكاشاني. كانت له مع علاء الدولة السمناني مراسلات وجدالات في المسائل العرفانية النظرية التي طرحها محي الدين. توفي سنة ٧٣٥.

ج - الخواجه حافظ الشيرازي: يعتبر حافظ، رغم شهرته العالمية مجهولاً في تاريخ حياته. والقدر المسلم فيه أنه كان عالماً وعارفاً وحافظاً ومفسراً للقرآن الكريم. وقد

أشار هو نفسه إلى هذا الأمر في أشعاره .

ورغم أنه قد ذكر في موارد عديدة شيخ الطريقة والمرشد [الذي يرجع اليه] ، فليس معلوماً من كان مرشده ومربيه . تعتبر أشعاره في قمة العرفان[١] ، وقلّ من استطاع أن يفهم تلك اللطائف العرفانية . وقد اعترف كل العرفاء الذين جاءوا من بعده أنه كان صاحب مقامات عالية في العرفان طواها بسلوكه العملي .

قام بعض العلماء بشرح بعض أبياته وقصائده كالمحقق جلال الدين الدواني ، الفيلسوف المعروف في القرن التاسع الهجري .

توفي حافظ سنة ٧٩١ هـ[٢] .

د ـ الشيخ محمود الشبستري : مبدع المنظومة العرفانية

---

(١) ألف الشهيد المطهري كتاباً في شرح أشعار لحافظ تحت عنوان «تماشاكاه راز» أو مشهد السر . وكان هدفه الاساسي بيان تلك اللطائف العرفانية التي جاءت في الأغلب بصورة الرمز والاستعارات الغزلية والخمرية [المترجم] .

(٢) يعتبر حافظ اليوم من اكثر الشعراء الفرس شعبية في ايران . وقد حاول الماديون الاستغلاليون أن يظهروا حافظ كوجه من الوجوه المادية أو أن يضعوه موضع الشكاك ويستغلوا شعبيته لأجل ترويج أهدافهم . لقد قمنا ببحث هذه المسألة أيضاً (كقضية الحلاج) في مقدمة الطبعة الثامنة «للدوافع نحو المادية» .

العظيمة المسماة بـ «گلشن راز» [باقة السر] . تعتبر هذه المنظومة احدى الكتب العرفانية الكبرى التي خلّدت اسم صاحبها . وقد وضع حولها شروحات عديدة . لعل أفضل تلك الشروحات شرح الشيخ محمد اللاهيجي ، الذي طبع وهو موجود في المكتبات . كانت وفاة الشبستري حوالي عام ٧٢٠ هـ .

هـ - السيد حيدر الآملي : أحد العرفاء المحققين . وله كتاب بعنوان «جامع الاسرار» يعد من الكتب الدقيقة في العرفان النظري المحي الديني وقد طبع مؤخراً بشكل جيد . وكتابه الآخر «نص النصوص في شرح الفصوص» . كان معاصراً لفخر المحققين الحلي الفقيه المشهور . ولا نعلم سنة وفاته .

و - عبد الكريم الجيلي : صاحب الكتاب المعروف «الانسان الكامل» ، كان محي الدين العربي أول من طرح بحث «الانسان الكامل» بصورة نظرية ومن بعده صار لهذا البحث منزلة مهمة في العرفان الاسلامي .

وقد قام صدر الدين القونوي ببحث هذا الموضوع في فصل مطوّل في كتاب «مفتاح الغيب» . وإلى الحد الذي نعرفه قام اثنان من العرفاء بتأليف كتاب مستقل حول هذا الموضوع . أحدهما عزيز الدين النَسفي (من عرفاء النصف الثاني للقرن السابع) ، والآخر هو عبد الكريم الجيلي . طبع

كـلاهمـا تحت نفس العنـوان . تـوفي سنــة ٨٠٥ عن عمـر ٣٨ سنة . وليس واضحاً لدينا إن كان من أهل «جيل» بغداد أم من «جيلان» ايران .

عرفاء القرن التاسع :

أ- شـــاه نعمــة الله الـــولي : يعـــود نسبـــه إلى علي عليـه السلام . وهـو من مشاهيـر العرفـاء والصوفيـة . تعتبـر سلسلة نعمـة الله في العصـر الحـالي من أشهـر السـلاسـل العرفانية . وقبره موجود في «ماهان» بكرمان وتزوره الصوفية .

قيل أنه عمّـر حوالي ٩٥ سنـة وتوفي في سنـة ٨٢٠ أو سنـة ٨٢٧ أو ٨٣٤ . قضى أغلب حيـاتـه في القـرن الثـامن والتقى بحافظ الشيرازي . مـا زال لدينـا الكثير من الأشعـار العرفانية التي نظمها .

ب ـ صائن الدين علي تركة الأصفهاني : من العرفـاء المحققين . وله باع طويل في العرفان النـظري لمحي الدين العربي . له كتاب بعنوان «تمهيد القواعد» طبع عدة مرات ، ويظهر فيه تبحّره في العرفان ويستفيد منه المحققون ويعتبرونه مرجعاً .

ج ـ محمـد بن حمـزة الفنـاري الـرومي : من علمـاء الـدولة العثمـانية . كـان رجـلاً جـامعـاً ، ألف العـديـد من الكتب . وقـد ظهرت شهـرته في العـرفان من خـلال كتـابـه «مصباح الأنس» الذي كتبه شرحاً لمفتاح الغيب للقونوي .

العظيمة المسماة بـ «گلشن راز» [باقة السر] . تعتبر هذه المنظومة احدى الكتب العرفانية الكبرى التي خلّدت اسم صاحبها . وقد وضع حولها شروحات عديدة . لعل أفضل تلك الشروحات شرح الشيخ محمد اللاهيجي ، الذي طبع وهو موجود في المكتبات . كانت وفاة الشبستري حوالي عام ٧٢٠ هـ .

هـ - السيد حيدر الآملي : أحد العرفاء المحققين . وله كتاب بعنوان «جامع الاسرار» يعد من الكتب الدقيقة في العرفان النظري المحي الديني وقد طبع مؤخراً بشكل جيد . وكتابه الآخر «نص النصوص في شرح الفصوص» . كان معاصراً لفخر المحققين الحلي الفقيه المشهور . ولا نعلم سنة وفاته .

و - عبد الكريم الجيلي : صاحب الكتاب المعروف «الانسان الكامل» ، كان محي الدين العربي أول من طرح بحث «الانسان الكامل» بصورة نظرية ومن بعده صار لهذا البحث منزلة مهمة في العرفان الاسلامي .

وقد قام صدر الدين القونوي ببحث هذا الموضوع في فصل مطوّل في كتاب «مفتاح الغيب» . وإلى الحد الذي نعرفه قام اثنان من العرفاء بتأليف كتاب مستقل حول هذا الموضوع . أحدهما عزيز الدين النَسفي (من عرفاء النصف الثاني للقرن السابع) ، والآخر هو عبد الكريم الجيلي . طبع

كلاهما تحت نفس العنوان . توفي سنة ٨٠٥ عن عمر ٣٨ سنة . وليس واضحاً لدينا إن كان من أهل «جيل» بغداد أم من «جيلان» ايران .

عرفاء القرن التاسع :

أ - شاه نعمة الله الولي : يعود نسبه إلى علي عليه السلام . وهو من مشاهير العرفاء والصوفية . تعتبر سلسلة نعمة الله في العصر الحالي من أشهر السلاسل العرفانية . وقبره موجود في «ماهان» بكرمان وتزوره الصوفية .

قيل أنه عمّر حوالي ٩٥ سنة وتوفي في سنة ٨٢٠ أو سنة ٨٢٧ أو ٨٣٤ . قضى أغلب حياته في القرن الثامن والتقى بحافظ الشيرازي . ما زال لدينا الكثير من الأشعار العرفانية التي نظمها .

ب - صائن الدين علي تركة الأصفهاني : من العرفاء المحققين . وله باع طويل في العرفان النظري لمحي الدين العربي . له كتاب بعنوان «تمهيد القواعد» طبع عدة مرات ، ويظهر فيه تبحّره في العرفان ويستفيد منه المحققون ويعتبرونه مرجعاً .

ج - محمد بن حمزة الفناري الرومي : من علماء الدولة العثمانية . كان رجلاً جامعاً ، ألف العديد من الكتب . وقد ظهرت شهرته في العرفان من خلال كتابه «مصباح الأنس» الذي كتبه شرحاً لمفتاح الغيب للقونوي .

قام الفناري بشرح كتب محي الدين والقونوي رغم أن هذا العمل ليس بمقدور أي انسان ، وكانت أعماله مورد تأييد العرفاء الذين جاءوا من بعده .

طبع هذا الكتاب في طهران بالطبعة الحجرية مع تعليقات وحواشي الآقا ميرزا هاشم الرشتي (أحد عرفاء القرن الأخير) . وللأسف فإن العديد من تعليقات وحواشي الرشتي لا يمكن قراءتها بسبب سوء الطباعة .

د - شمس الدين محمد اللاهيجي النوربخشي : شارح «گلشن راز» للشبستري . معاصر صدر الدين الدشتكي والعلامة الدواني . عاش في شيراز ، وطبقاً لما نقله القاضي نور الله في كتاب «مجالس المؤمنين» كان كل من صدر الدين الدشتكي والعلامة الدواني ، وهما من الحكماء البارزين في عصره ، يكنان له فائق الاحترام والتجليل .

كان مريداً للسيد محمد نوربخش الذي كان أيضاً تلميذ ابن فهد الحلي الذي سوف يأتي ذكره في تاريخ الفقهاء .

يذكر اللاهيجي في شرح «كلشن راز» (الصفحة ٦٩٨) أن سلسلة فَقره تبدأ من السيد محمد نوربخش وتصل إلى المعروف الكرخي لتنتهي بعد ذلك إلى الامام الرضا عليه السلام والائمة الاطهار عليه السلام حتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويسمي هذه السلسلة «سلسلة الذهب» .

تعود شهرة اللاهيجي بالدرجة الاولى إلى الشرح الذي وضعه على ديوان الشبستري ، وهو أحد المتون العرفانية الكبرى . وكما ذكر في مقدمة كتابه فقد بدأ التأليف والكتابة سنة ٨٧٧ . وليس معلوماً بالدقة تاريخ وفاته . ولكن يظهر أنه كان قبل سنة ٩٠٠ هـ .

هـ - نور الدين عبد الرحمٰن جامي : عربي الأصل ويعود نسبه إلى محمد بن حسن الشيباني الفقيه المعروف في القرن الثاني للهجرة . كان شاعراً قديراً . ويعد آخر شعراء العرفان الكبار في اللغة الفارسية .

كان ملقباً في البداية «بالدشتي» نسبة إلى منطقة دشت ، ولكن لأنه ولد في جام قرب مشهد المشرفة وكان مريداً لأحمد جامي (جنده بيل) فقد غير لقبه وصار يلقب بجامي أيضاً .

درس جامي العلوم الاسلامية المختلفة من النحو والصرف والفقه والاصول والمنطق والفلسفة والعرفان ونال فيها أعلى المراتب . وبعدها ألف العديد من الكتب . من جملتها «شرح فصوص الحكم» لمحي الدين العربي ، «شرح اللمعات» لفخر الدين العراقي ، «شرح تائية «ابن الفارض» ، شرح قصيدة البردة في مدح الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، شرح القصيدة الميمية للفرزدق في مدح الامام زين العابدين عليه السلام ، كتاب اللوائح ، بهارستان (الذي

ألفه على نسق كلستان سعدي) ونفحات الأنس في شرح أحوال العرفاء .

كان جامي مريداً لطريقة بهاء الدين نقشبند مؤسس الطريقة النقشبندية ، ولكنه ـ مثل محمد اللاهيجي الذي كان مريداً لطريقة السيد محمد نوربخش ـ كشخصية تاريخية كان أعظم منه . فجامي الذي كان من اتباع طريقة بهاء الدين النقشبند ، بزّ بشخصيته الثقافية والتاريخية بهاء الدين بدرجات . ولاننا قد قصرنا النظر في هذا العرض التاريخي الموجز على الجانب الفكري للعرفان دون الجانب العملي (الطريقة) فقد خصصنا بالذكر كلًّ من محمد اللاهيجي وعبد الرحمٰن جامي فقط . توفي جامي سنة ٨٩٨ عن عمر يناهز ٨١ سنة .

* * *

كان هذا عرضاً تاريخياً موجزاً للعرفان من البداية وحتى نهاية القرن التاسع . وحسب اعتقادي فإن العرفان قد أتخذ شكلًا آخراً ووضعاً مختلفاً في الفترة اللاحقة . ففي الفترة السابقة كانت الشخصيات العلمية والفكرية للعرفان تنضم إلى السلاسل الرسمية (المعروفة) في التصوف ، وكان أقطاب الصوفية يعدون من الشخصيات الكبرى في الفكر العرفاني ومنهم جاءتنا الآثار العرفانية العظيمة . ولكن في المرحلة اللاحقة صار هذا الأمر على منوال آخر .

أولاً: لم يعد لأقطاب التصوف في الأغلب تلك الميزة العلمية والفكرية التي كانت للأوائل . ولعله يمكن القول أن التصوف الرسمي قد غاص في الآداب والظواهر وفي البدع أحياناً .

ثانياً: برز العديد من الذين تخصصوا في العرفان النظري لمحي الدين بدون أن يكون أحدهم داخلاً في أية سلسلة من سلاسل التصوف ولا يوجد نظير لهم في التصوف المعهود .

مثل صدر المتألهين الشيرازي المتوفي سنة ١٠٥٠ وتلميذه الفيض الكاشاني المتوفي سنة ١٠٩١ وتلميذ الفيض القاضي سعيد القمي المتوفي سنة ١١٠٣ ، فإن اطلاعهم على العرفان النظري لمحي الدين فاق أقطاب زمانهم رغم أنهم لم يكونوا داخلين في سلسلة من السلاسل الصوفية . وما زال هذا الأمر حتى عصرنا هذا . مثل المرحوم السيد محمد رضا الحكيم القمشه والمرحوم السيد ميرزا هاشم الرشتي من علماء القرن الأخير الذين كان لهم باع طويل في العرفان النظري بدون أن يكونوا من أصحاب التصوف المعهود .

وبشكل عام ، فإن هذه البذرة قد غرست منذ أن أسس محي الدين وصدر الدين القونوي العرفان النظري ثمّ اتخذ العرفان بعدها صبغة فلسفية . ولعل محمد بن حمزة الفناري

يعد من هذه الجماعة . ولكن ومنذ القرن العاشر وإلى اليوم صار واضحاً ظهورُ فئة متخصصة في العرفان النظري ممن لم يكونوا من أهل السير والسلوك العملي أو اذا كانوا ، فليسوا من أتباع السلاسل الصوفية الرسمية .

ثالثاً: منذ القرن العاشر وحتى اليوم شاهدنا في عالم التشيع أفراداً أو جماعات كانوا من أهل السير والسلوك والعرفان العملي وقد حازوا على المقامات العرفانية بأعلى صورها بدون أن يكونوا من أتباع السلاسل الصوفية ، بل لم يولوها أي اهتمام وأنما قاموا بتخطئتها . ومن خصائص ومميزات هذه الجماعة (التي كان أصحابها من الفقهاء أغلب الأحيان) التطبيق والتوفيق الكامل ما بين آداب السلوك وآداب الفقه .

ولهذا الأمر تاريخ خاص لا مجال لذكره الآن .

الدرس السابع والثامن والتاسع

المنازل والمقامات

يؤمن العرفاء بضرورة طي منازل ومقامات لأجل الوصول إلى مقام العرفان الحقيقي ويقولون بأن عدم عبورها يجعل الوصول إلى ذلك المقام غير ممكن .

ويوجد ما بين العرفان والحكمة الإلهية جهة اشتراك ووجوه افتراق . فالنقطة المشتركة هي أن هدف الاثنين «معرفة الله» . أما وجوه الافتراق والاختلاف فهي :

أولاً : أن الحكمة الالهية ترى في الهدف شيئاً آخر غير معرفة الله بالخصوص وهو نظامَ الوجود كما هو موجود . فالمعرفة التي هي هدف الحكيم تشكّل نظاماً تعتبر معرفة الله ركناً مهماً فيه . ولكن هذا الهدف في المدرسة العرفانية ينحصر في معرفة الله تعالى .

فالعارف ينظر إلى معرفة الله على أنها معرفة كل شيء . فكل شيء ينبغي أن يُعرف في ظل معرفة الله والوجهة

التوحيدية . وهذا النمط من المعرفة هو فرع معرفة الله .

ثانياً: إن المعرفة المطلوبة عند الحكيم ، معرفة فكرية وذهنية ، مثل تلك المعرفة التي يـريد الـرياضيـون الحصول عليها في حل المعضلات والمسائل الرياضية .

أمـا المعرفـة المطلوبـة عند العـارف ، فهي المعـرفـة الحضورية والشهودية مثل المعرفـة التي تحصل للبـاحث في المختبـر . فالحكيم يـطلب علم اليقين والعارف يـريـد عين اليقين .

ثـالثـاً: الـوسيلة التي يستخـدمهـا الحكيم هي العقـل والاستدلال والبرهان ، أما الـوسيلة التي يستخدمهـا العارف فهي القلب والتصفية والتهذيب والتكميـل للنفس . فالحكيم يحرك منظار ذهنه ليطالع نظام العالم من خلاله ، أما العارف فـانه يتحـرك بكل وجـوده ليصـل إلى كنـه وحقيقـة الـوجـود وكالقطرة التي تمتزج بالبحر يتصل بالحقيقة .

فالكمال الفطري والمطلوب في نـظر الحكيم يكمن في الفهم ، أما الكمال الفطري والمرجو عند العارف فهو في الوصول .

عند الحكيم يكون الانسان ناقصاً إذا كان جاهلاً ، أما العارف فانه يرى نقص الانسان مساو للبعد والهجر من أصله [أو ناتج عنهما] .

يعتبر العارف أن الوصول إلى المقصد الأصلي والعرفان الحقيقي لا يتم الا من خلال عبور سلسلة من المنازل والمراحل والمقامات ويسمي هذا الأمر «بالسير والسلوك» .

وفي الكتب العرفانية بحثت مسائل المنازل والمقامات بالتفصيل . ونحن هنا لا يمكننا أن نقوم بشرحها ولو بشكل مختصر ، ولكن لكي نقدم اشارة إجمالية ، نفضل الاستفادة من النمط التاسع من «الاشارات» لابن سينا .

فمن المعروف أن ابن سينا فيلسوف وليس عارفاً ، ولكنه لم يكن فيلسوفاً جامداً ، وخاصة في أواخر عمره حيث أظهر ميولاً نحو العرفان وقد خصص «الاشارات» وهو آخر ما صنف ، بفصل حول «مقامات العارفين» .

وأنا أفضل هنا أن أنقل خلاصة من هذا الفصل الراقي والجميل بدلاً من أن نقوم بترجمة شيء آخر من الكتب العرفانية الأخرى .

التعريف:

«المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد ، والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوها يخص باسم العابد ؛ والمتصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحق في سره يخص باسم

العارف ، وقد يتركب بعض هذه مع بعض» .

إن ابن سينا هنا قد عرف الزاهد والعابد والعارف وفي نفس الوقت عرف الزهد والعبادة والعرفان ضمنياً . لأن تعريف الزاهد بما هو زاهد . والعابد بما هو عابد والعارف بما هو عارف مستلزم لتعريف الزهد والعبادة والعرفان .

فتكون نتيجة المطلب أن الزهد عبارة عن الاعراض عن المشتهيات الدنيوية ، والعبادة عبارة عن أداء أعمال خاصة من قبيل الصلاة والصوم وتلاوة القرآن وأمثالها ، أما العرفان فهو انصراف الذهن عما سوى الله والتوجه الكامل إلى ذات الحق لأجل شروق نور الحق في القلب .

وقد أشار في الجملة الأخيرة إلى نقطة مهمة وهي أنه قد «يتركب بعض هذه مع بعض» . فيمكن اذن أن يكون شخص ما زاهداً وعابداً في نفس الوقت؛ أو عابداً وعارفاً ، أو زاهداً وعارفاً أو يجمع كل المراتب ، ولكن الشيخ لم يوضح . وهنا بالطبع يقصد انه يمكن أن يكون واحدٌ ما زاهداً وعابداً أو لا يكون عارفاً ، ولكن لا يمكن أن يكون عارفاً وليس زاهداً وعابداً .

وتوضيح المطلب أن ما بين الزاهد والعابد يوجد عموم وخصوص من وجه ، فيمكن في هذه الحال أن يكون الانسان زاهداً ولا يكون عابداً أو العكس أو يجمع بينهما . ولكن ما بين الزاهد والعابد مع العارف عموم وخصوص مطلق أي أن

كل عارف هـو زاهد وعـابد ولكن ليس بـالضرورة أن يكـون الزاهد أو العابد عارفاً .

وسوف يأتي الحـديث لاحقاً أن لـزهد العـارف فلسفة مختلفـة عن زهد غيـر العارف . ففلسفـة زهد الـزاهـد غيـر العارف شيء وفلسفة زهد الزاهد العارف شيء آخر ، كما أن فلسفة عبادة العارف تختلف عن عبادة غير العارف ، بـل أن روح ومـاهية زهـد العارف وعبـادته تختلف عن زهـد وعبادة غيره .

«الزهد عند غير العارف معاملة ما كأنـه يشتري بمتـاع الدنيـا متاع الآخرة ، وعند العارف تنزه ما عما يشغل سره عن الحق وتكبر على كل شيء غير الحق . والعبادة عنـد غير العـارف معاملة ما كأنه يعمل في الدنيا لأجرة يأخذهـا في الآخرة هي الأجر والثواب ، وعند العارف رياضة مـا لهممه وقـوى نفسه المتوهمة والمتخيلة ليجرها بالتعويـد عن جناب الغـرور إلى جناب الحق» .

هدف العارف:

«العارف يريـد الحق الأول لا لشيء غيره ولا يؤثر شيئاً على عـرفانـه ، وتعبده لـه فقط لأنه مستحق للعبـادة ولأنهـا نسبـة شريف إليه لا لرغبة أو رهبة» .

فالمقصود أن العارف من جهة الهدف «موحّد» فهو يريد

الله فقط ولا يريده بواسطة النعم الدنيوية أو الأخروية ، لأن هذا الأمر يجعل تلك النعم هي المطلوبة بالذات ويكون الله مقدمة ووسيلة . مما يعني أن المعبود الحقيقي هو النفس ، لأن تلك النعم ليست الا لإرضاء النفس .

فكل ما يطلبه العارف يكون لله . وهذه النعم الالهية ليست الا مظهراً لعنايته وتوجهه وكرمه ولطفه . غير العارف يريد الله لأجل الحصول على نِعَمِه أما العارف فإنه يجعلها وسيلة للوصول إلى الله .

وهنا يبرز سؤال وهو أن العارف لو كان يريد الله لا لشيء فلماذا يعبده؟ أليس أن كل عبادة لأجل مقصد ما؟ يجيب الشيخ أن هدف العارف ودافعه للعبادة أمران . الأول ، الاستحقاق الذاتي للمعبود للعبادة: يعبده لأنه أهل لذلك . كما يحدث عندما يرى الانسان كمالاً ما في شخص أو شيء فيمدحه ، واذا سئل: ما الذي دفعك لمدحه والثناء عليه؟ ماذا تستفيد من هذا المدح؟ يقول: «لم أمدحه لأجل الحصول على فائدة ما ، وإنما اثنيت عليه لأنه يستحق هذا الثناء» . ويمكن عد مدح الابطال والعظماء في كافة المجالات من هذا القبيل .

الهدف الآخر للعارف من العبادة ، اللياقة الذاتية للعبادة أي الشرف والحسن الذاتي الذي تتمتع به . وذلك لأنها نسبة وارتباط ما بين الله والعبد . فلا يلزم إذن أن تكون

كل عبادة لأجل طمع أو خوف .

والجملة المعروفة المنقولة عن علي عليه السلام

«إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك» .

تشير إلى هذا المطلب .

ويعتمد العرفاء على هذا الأمر كثيراً ، فلو كان الهدف الذي ينشده الانسان في الحياة وفي خصوص العبادة غير ذات الحق لكان ذلك نوعاً من الشرك . والعرفان يقف مقابل هذا الشرك بقوة .

أول المنازل:

«أول درجات حركات العارفين ما يسمّونه هم الارادة وهو ما يعتري المستبصر باليقين البرهاني أو الساكن النفسي إلى العقد الايماني من الرغبة في اعتلاق العروة الوثقى فيتحرك سره إلى القدس لينال من روح الاتصال» .

لأجل بيان أول منازل السير والسلوك الذي يحمل في طياته كل مراتب العرفان بالقوة لا بد من توضيح بعض النقاط:

يعتقد العرفاء بأصل يبينونه من خلال هذه الجملة :

«النهايات هي الرجوع إلى البدايات» .

ومن البديهي أن النهاية إذا كانت عين البداية فهذا يعطي احتمالين .

الأول: أن تكون الحركة على خط مستقيم والشيء المتحرك بعد أن يصل إلى نقطة معينة يغير إتجاهه ويعود من نفس الطريق الذي تحرك منه . وقد ثبت في الفلسفة أن مثل هذا التغيير في الجهة يستلزم تخلل السكون ولو كان غير محسوسٍ ، إضافة إلى أن هاتين الحركتين متضادتين [الذهاب والإياب] .

الاحتمال الثاني: أن تكون الحركة على خط منحنٍ تبعد جميع نقاطه بمسافة متساوية عن نقطة ما ، كما في الحركة الدائرية .

وفي هذه الحال فإن الحركة التي ترسم على خط دائري سوف تنتهي إلى نقطة البداية والانطلاق . فالشيء الذي يتحرك بشكل دائري ينطلق من نقطة البداية ليصل إلى أبعد نقطة عنها (في المقابل) وبعد ذلك يعود إلى نفس النقطة بدون أن يتخلله سكون .

ويسمي العرفاء هذه الحركة من نقطة المبدأ حتى أبعد نقطة «بقوس النزول» والمسير من هذه النقطة إلى نقطة المبدأ «بقوس الصعود» ولحركة الأشياء من المبدأ حتى النقطة الأبعد فلسفة خاصة ، يعبر عنها الفلاسفة بأصل العلية وهي عند العرفاء أصل التجلي . وعلى أية حال فإن حركة الأشياء في

قـوس النزول تكـون وكأنهـا تساق من الخلف ، أمـا حـركـة الأشياء من النقطة الأبعد إلى نقطة المبدأ فلها فلسفة أخرى ، وهي فلسفة أصل الميل والعشق لكل فرع للرجوع إلى أصله ومبدئه ، وبعبـارة أخرى هـو أصل فـرار كل منفصـل ووحيد وغريب إلى وطنه الأصلي . ويعتقـد العرفـاء أن هذا الميـل يشمل كل ذرات الوجود ومنها الانسان ، ولكن قد يكون هذا الأمـر «كامنـاً» فيه أو مخفيـاً ، وتمنع الشـواغل من قـوة هذا الحس الـذي يمكن أن يعـود للظهـور على اثـر سلسلة من التنبيهات . ويعبر عن هذا الظهور والبروز «بالارادة» .

تعتبـر هذه الارادة في الحقيقـة نوعـاً من يقـظة شعـور مخفي . يقـول عبـد الـرزاق الكـاشـاني في رسـالـة «الاصـطلاحـات» التي طبعت على هـامش شـرح منـازل السائرين في تعريف الارادة :

«جمـرة من نار المحبـة في القلب المقتضية لإجـابـة دواعي الحقيقة» .

أما الخواجة عبد الله الانصاري فانـه يعرِّف الارادة في كتابه المشهور «منازل السائرين» :

«وهي الإجابة لدواعي الحقيقة طوعاً» .

النقـطة التي يلزم ذكـرهـا هنـا ، أن الارادة تعـد أول المنـازل . والمقصود من ذلـك أنها بعـد سلسلة من المنازل

الأخرى التي يسمونها بالبدايات والأبواب والمعاملات والأخلاق . وهي تأتي في البداية بالنسبة «للأصول» العرفانية ، وعند ظهور حالة العرفان الحقيقية .

يقصد أبو علي سينا في عبارته المذكورة ، أن «الارادة» عبارة عن الميل والشوق الذي ينشأ في الانسان بعد الاحساس بالغربة والوحدة والافتقار ، لأجل التمسك بالحقيقة والاتصال لاجل إزالة أي نوع من الإحساس بالغربة والوحدة .

التمرين والرياضة:

«ثم إنه ليحتاج إلى الرياضة؛ والرياضة متوجهة إلى ثلاثة أغراض: الاول تنحية ما دون الحق عن مستن الايثار ، والثاني تطويع النفس الامارة للنفس المطمئنة.. والثالث تلطيف السر للتنبه» .

بعد مرحلة الارادة التي هي بداية العروج ، يأتي دور مرحلة التمرين والاستعداد . ويعبر عن هذا التهيؤ بكلمة «الرياضة» . أما اليوم فإن لكلمة «الرياضة» مفهوم الزجر للنفس . وفي بعض المدارس يكتسب هذا الزجر والتعذيب للنفس أصالة مميزة ، كما نرى عند مرتاضي الهنود . أما في تعبير ابن سينا فإن مفهوم الرياضة يكتسب معناه الأصلي .

«فالرياضة» في أصل اللغة العربية تعني التمرين والتعليم الذي يخضع له الحصان البري (يروّض) لكي يصبح

قابلاً للركوب . ثم استعملت هذه الكلمة فيما بعد في مورد الرياضات البدنية ، وهي الآن شائعة بهذا المعنى في اللغة العربية ، أما في اصطلاح العرفاء فهي عبارة عن التمرين والاستعداد الروحي لأجل شروق نور المعرفة . وهي متوجهة إلى ثلاثة أهداف:

الأول يرتبط بالأمور الخارجية من ازالة الشواغل وموجبات الغفلة .

الثاني يرتبط بانتظام القوى الباطنية وإزالة الاضطرابات الروحية وهذا ما يعبر عنه بترويض النفس الأمارة للنفس المطمئنة .

الثالث يرتبط بنوع من التغييرات الكيفية في باطن الروح ويعبر عنه «بتلطيف السّر» .

«والأول يعين عليه الزهد الحقيقي ، والثاني يعين عليه عدة أشياء: العبادة المشفوعة بالفكرة ، ثم الالحان المستخدمة لقوى النفس الموقعة لما لحن به من الكلام موقع القبول من الأوهام ، ثم نفس الكلام الواعظ من قائل زكي بعبارة بليغة ونغمة رخيمة وسمت رشيد ، وأما الغرض الثالث فيعين عليه الفكر اللطيف والعشق العفيف الذي يأمر فيه شمائل المعشوق ليس سلطان الشهوة».

«ثم إنه إذا بلغت به الارادة والرياضة حدّاً ما ، عنت له

خلسات من اطلاع نور الحق عليه لذيذة كأنها بـروق تومض إليه ثم تخمد عنه وهو المسمّى عندهم أوقاتاً ثم انه تكثر عليه هذه الغواشي اذا أمعن في الارتياض» .

«وانه ليتوغل في ذلك حتى يغشاه في غير الارتياض . فكلما لمح شيئاً عـاج منه إلى جنـاب القدس يتـذكر من أمـره أمراً مغشيـه غاش فيكاد يرى الحق في كل شيء» .

«ولعله إلى هذا الحد يستعلى عليه غواشيه ويـــزول هـــو عن سكينته فيتنبّه جليسه» .

«ثم انه لتبلغ به الرياضـة مبلغاً ينقلب وقتـه سكينة ، فيصيـر المخطوف مألوفاً والوميض شهابـاً بيّناً ، ويحصـل له معـارفة مستقرة كأنها صحبة مستمرة ويستمتع فيها ببهجته ؛ فاذا انقلب عنها انقلب حيـران أسفـاً» .

«ولعله إلى هذا الحد يظهر عليه ما به ، فإذا تغلغـل في هذه المعارفة قلّ ظهوره عليه فكان وهو غائب ظـاهراً وهـو ظاعن مقيماً» .

وتذكرنـا هذه الجملة بكـلام لمولى المتقين عليـه السلام في حديث له مع كميل بن زيـاد في ذكر «أوليـاء الله» في جميع الأزمنة :

«هجم بهم العلم على حقيقـة البصيرة وبـاشـروا روح اليقين واستـلانوا مـا استوعـره المترفـون وانسوا بمـا استوحش منـه

الجاهلون وصحبوا الدنيا بابدان أرواحها معلقة بالمحل الاعلى» .

(نهج البلاغة ، الخطبة ١٤٧) .

«ولعله إلى هذا الحد انما يتيسر له هذه المعارفة أحياناً ثم يتدرج إلى أن تكوه له متى شاء» .

«ثم انه ليتقدم هذه الرتبة؛ فلا يتوقف امره إلى مشيئته ، بل كلما لاحظ شيئاً لاحظ غيره وان لم تكن ملاحظته للاعتبار ، فيسنح له تعريج عن عالم الزور إلى عالم الحق ، مستقر به ويحتف حوله الغافلون» .

«فاذا عبر الرياضة إلى النيل صار سره مرآة مجلوة محاذياً بها شطر الحق ، ودرت عليه اللذات العلى وفرح بنفسه لما بها من أثر الحق و كان له نظر إلى الحق ونظر إلى نفسه وكان بعد متردداً» .

«ثم انه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط ، وان لحظ نفسه فمن حيث هي لاحظة لا من حيث هي بزينتها . وهناك يحق الوصول» .

كانت هذه خلاصات قسم من النمط التاسع «الاشارات» .

والنقطة التي يلزم ذكرها ان العرفاء يعتقدون بأربعة أنواع من السير:

١ ـ السير من الخلق إلى الحق .

٢ ـ السير بالحق في الحق .

٣ ـ السير من الحق إلى الخلق بالحق .

٤ ـ السير في الخلق بالحق .

فالسير الاول من المخلوق إلى الخالق [عبور عالم الطبيعة والكثرات] والسير الثاني في الخالق ، وهي مرحلة معرفة الاسماء والصفات الالهية والتحقق بها .

اما في السفر الثالث فهو عالم الرجوع إلى الخلق بدون الانفصال عن الحق فهو في عين وجوده مع الله يعود إلى الناس لارشادهم وهدايتهم .

اما السفر الرابع فهو بين الناس بالحق [وهو الهداية الرحيمية] .

وفي هذا السير يكون العارف مع الناس مخالطاً لهم ، يقوم بشؤونهم الحياتية لهدايتهم إلى الحق .

وما لخّصناه من «الاشارات» يرتبط بالسفر الأول من هذه الأسفار الأربعة . وقد أشار ابن سينا قليلاً إلى السير الثاني ولكن لا نرى ضرورة لذكره .

أما الخواجة نصير الدين الطوسي فقد قال في شرح الاشارات ان ابن سينا قد بيّن السفر العرفاني الأول في تسع

مراحل . الثلاثة الأول تتحدث عن مبدأ السفر ، وثلاثة تتحدث عن العبور من المبدأ إلى المنتهى ، والثلاثة الباقية ترتبط بمرحلة الوصول إلى المقصد . ومن خلال التأمل في كلام الشيخ الرئيس تتضح هذه الاشارة .

وما أشار إليه ابن سينا إنما كان بشكل اجمالي ، ومن أراد التفصيل فيمكنه العثور عليه في الكتب العرفانية .

الدرس العاشر

المصطلحات

نريد في هذا الدرس أن نشير إلى جملة من المصطلحات العرفانية .

فالعرفاء لديهم الكثير من المصطلحات وبدون التعرف عليها لا يمكن أن نفهم مقاصدهم ، بل قد ينقلب الأمر على عكس المطلوب . ويعد هذا الأمر من مميزات العرفان .

لكل علم من العلوم سلسلة من المصطلحات التي لا بد منها . فالمفاهيم التي تستخدم في العرف العام لا تكفي لتفهيم المقاصد العلمية ، ولذا لزم أن يصطلح أهل كل فن وعلم على ألفاظ خاصة لمعان خاصة اعتبارية ، ولا يستثنى العرفان من هذه القاعدة .

إضافة إلى هذا ، لم يجعل العرفاء مصطلحات خاصة

بهم بسبب ما ذكرناه فحسب ، بل إنهم يصرّون على عدم اطلاع أولئك الذين لم يدخلوا في طريقتهم على مقاصدهم ، لأن المعاني العرفانية لا يمكن فهمها ـ على الاقل باعتقاد العرفاء ـ عند غير العارف .

وهذا هو السبب الذي جعلهم يتعمدون كتم مقاصدهم ، خلافاً لأصحاب العلوم والفنون الأخرى . ولهذا فإن اصطلاحات العرفاء لها جهة اللغز والسر .

وبمعزل عن الأمرين اللذين ذكرناهما ، فهناك أمر ثالث قد يعقّد القضية أكثر ، وهو أن بعض العرفاء ـ على الأقل أولئك الذين يسمون بأهل العتاب[1] ولأجل أن يقلبوا «التعيّنات» ويبدلوا «الاسم» والفخر إلى عار عليهم بين الناس فانهم يتعمدون «الرياء المعكوس» . فهم على خلاف المرائين الذين هم من أهل السوء ويمدحون أنفسهم بما ليس فيهم ، يتعمدون أن يعتبرهم الناس سيئين مع الحفاظ على العلاقة الجيدة مع الله وبهذه الطريقة يريدون أن يزيلوا أي نوع من العجب والتظاهر أو عبادة الانا .

يقال أن أكثر عرفاء خراسان كانوا من هذا الصنف . ويعتقد البعض أن حافظ كان «لومياً» (من اللوم) . وكل الاصطلاحات التي وردت في الأشعار مما يمكن أن يفهم منه

---

(١) وهم ممن يكثرون ذم انفسهم وتحقيرها [المترجم] .

هذا المعنى إنما هو متوجه إلى الناس لا إلى الله تعالى .

من بين المسائل التي يقول بها العرفاء وكانت مورد انتقاد الفقهاء هي هذه المسألة . فكما أن الفقه الاسلامي يدين الرياء ويعتبره نوعاً من الشرك ، فكذلك يدين هذا النوع من التعاطي مع النفس ويقول بأن المؤمن لا يحق له أن يذل نفسه ويهين مكانته وشرفه الاجتماعي . ويوجد أيضاً الكثير من العرفاء الذين لا يقبلون بهذا النوع من التعاطي .

ما نريد أن نقوله هو أن أسلوب «الملامة» الذي انتشر بين بعض العرفاء كان سبباً في تعمدهم اظهار خلاف ما يقصدونه وما ينوونه أو يعتقدون به ، وهذا العمل جعل من فهم مقاصدهم قضية معقدة .

ويصرح أبو القاسم القشيري الذي هو من أئمة أهل العرفان في الرسالة «القشيرية» أن العرفاء يتعمدون استعمال المبهمات ، لأنهم لا يريدون أن يطلع على أطوارهم وحالاتهم ومقاصدهم أفرادٌ هم ليسوا من أهل هذا العلم . فهؤلاء لا يمكنهم أن يفهموا حقيقة المقصد[1] .

مصطلحات العرفاء كثيرة . فبعضها يرتبط بالعرفان النظري : أي الرؤية الكونية العرفانية والتفسير الذي يقدمه العرفان عن الوجود . وتشبه هذه المصطلحات مصطلحات

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٣ .

الفلاسفة مع تميزها بالحداثة . ويعتبر محي الدين مبدع جميع الاصطلاحات أو أكثرها وهي صعبة الفهم من قبيل: الفيض الاقدس ، الفيض المقدس ، الوجود المنبسط ، الحضرات الخمس ، مقام الأحدية ومقام الواحدية ومقام غيب الغيوب وأمثالها .

والبعض الآخر يرتبط بالعرفان العملي ، أي مراحل السير والسلوك العرفاني . وتتعلق هذه التعابير في الأغلب بالانسان مثل المفاهيم والتعابير المستعملة في علم النفس أو الاخلاق ، ويمكن أن يقال أنها في الواقع نوع خاص من علم النفس ، وهو علم النفس التجريبي . وباعتقاد العرفاء فإن الفلاسفة ـ أو علماء النفس أو علماء الأديان والمجتمعات ـ الذين لم يدخلوا في هذه العوالم ولم يشاهدوا أطوار النفس عن قرب أو يطلعوا عليها لا حق لهم أن يحكموا في مثل هذه المسائل ، فكيف بباقي الفئات .

وهذه الاصطلاحات خلافاً للاصطلاحات العرفانية النظرية قديمة؛ وتعود على الأقل إلى عصر ذي النون وبايزيد وجنيد .

ونحن هنا نذكر بعض المصطلحات طبق ما أورده القشيري وغيره:

١ ـ الوقت:

ذكرنا هذا المصطلح في الدرس السابق نقلاً عن ابن سينا . وهنا نأتي على بيانه طبق ما جاء على لسان العرفاء . وخلاصة ما أورده القشيري أن مفهوم «الوقت» مفهوم نسبي وإضافي . فكل حالة تعرض على العارف تقتضي منه سلوكاً خاصاً . وتلك الحالة الخاصة التي تقتضي ذلك السلوك الخاص تسمى «وقت العارف» . وبالتأكيد يمكن أن يكون هذا الوقت عند عارف آخر مختلفاً ، أو أن نفس العارف سيحصل على وقت آخر في شروط مختلفة . وهذا بدوره يقتضي سلوكاً متناسباً مع الوقت الجديد .

فعلى العارف أن يكون «عارفاً بالوقت» ، أي أن يعرف الحالة التي تعرض عليه من الغيب وما هو تكليفه في مثل هذه الحالة . وعليه أيضاً أن يغتنم هذا «الوقت» . ولهذا قيل: «العارف ابن الوقت» .

ما اصطلح عليه عند العرفاء بالوقت هو نفسه الذي يعبر عنه بالأشعار الفارسية بـ «دُم» أو «عيش نقد» ، وخاصة حافظ الذي تحدث عنهما كثيراً في قصائده .

وأولئك الجهلاء أو المغرضون الذين أرادوا أن يبينوا الشاعر حافظ بمظهر الفسق والفجور ، ظنوا أو أنهم قصدوا أن يفهموا من تلك العبارات التي أوردها حافظ في شعره أنه

يدعو إلى اللذة المادية ونسيان العاقبة والرب: أي ما يصطلح عليه الأوروبيون «بالابيقورية» .

ولكننا إذا تأملنا في الأبيات العديدة التي جاءت في قصائده نفهم المعنى الحقيقي الذي يقصده العرفاء من هذا المصطلح وإن كان حافظ يعمي المطلب باستخدام الاستعارات والكنايات الشعرية .

يقول القشيري: ما يقال «بأن الصوفي ابن وقته» يعني أنه يؤدي دائماً ما هو الأولى في الحالة المطلوبة . وقد قيل: «الوقت سيف قاطع» والمقصود أن حكم الوقت قاطع والتخلف عنه يؤدي إلى الموت .

٢ ، ٣ . الحال والمقام:

من المصطلحات الشائعة والرائجة عند العرفاء . فالذي يرد على قلب العارف بدون إختيار يسمّى «حال» ، وما يحصله ويكسبه يسمّى «المقام» . والحال سريع العبور أما المقام فيبقى . ويقال بأن الأحوال مثل البرق الساطع سريعة الزوال .

وقد ذكرنا في الدروس السابقة هذه الجملة من نهج البلاغة:

«قد أحيى عقله وأمات نفسه ، حتى دق جليله ولطف غليظه وبرق له لامع كثير البرق . .» .

ويسمي العرفاء تلك البوارق «لوائح» ، و«لوامع» و«طوالع» مع اختلاف الدرجات والمراتب ودرجة الشدة ومد بقائها .

٤ ، ٥ . القبض والبسط:

لهاتين الكلمتين مفهوم خاص عند العرفاء . فالقبض حالة الأخذ (الانقباض) التي تعتري روح العارف . أما البسط فهي حالة السرور (والمرح) للروح . وقد بحث العرفاء كثيراً بشأن القبض والبسط وعللهما .

٦ ، ٧ . الجمع والفرق:

تستخدم هاتين الكلمتين كثيراً عند العرفاء . يقول القشيري : ما يكون من العبد وما يحصله العبد ويكون لائقاً لمقام العبودية يسمى «الفرق» وما يكون من ناحية الرب من قبيل الالقاءات يسمى «الجمع» . فالذي يوفقه الله لطاعته وعبادته يكون في مقام الفرق ، والذي تشمله عنايات الرب وتظهر له يكون في مقام الجمع .

٨ ، ٩ . الغيبة والحضور:

الغيبة هي حالة عدم الاطلاع على الخلق تحصل أحياناً للعارف . وفيها يصبح العارف ذاهلاً عن نفسه وما حوله . ويحدث هذا الأمر لأن العارف يكون في تلك اللحظات حاضراً عند الله .

يمكن أن تقع بعض الحوادث المهمة حوله وهو في حالة الحضور عند الله والغيبة عن نفسه وأطرافه وهو لا يطلع عليها ولا يتعرف .

ويذكر العرفاء في هذا المجال قصصاً شبيهة بالخرافات . يقول القشيري : أن الحادثة التي أدت بأبي حفص الحداد النيشابوري أن يترك مهنة الحدادة بدأت عندما كان في دكانه مشغولاً بعمله ، سمع في الاثناء رجلاً يتلو إحدى آيات القرآن المجيد فاستولت على قلبه حالة لم يَعُدْ يشعر بوجوده ، وبدون أن يلتفت وضع يده في الحديد الملتهب وحمله من مكانه ، فصرخ عامله : ماذا تفعل؟ التفت أبو حفص إلى ما حدث ومن حينها قرر ترك هذا العمل .

ويذكر أيضاً: أن الشبلي دخل يوماً على الجنيد وكانت زوجته جالسة معه . أرادت الزوجة أن تقوم من مكانها ، فقال لها جنيد: إن الشبلي في حالة لا يشعر بك أبداً وهو ذاهل عنك ، فاجلسي ، فجلست ، وتحدث الجنيد مع الشبلي لفترة وشيئاً فشيئاً بدأ الشبلي بالبكاء . حينها قال جنيد لزوجته: الآن استتري فإن الشبلي بدأ بالرجوع .

والعرفاء يفسرون الحالة التي تعرض لأولياء الله أثناء الصلاة بحيث ينسون كل شيء ولا يشعرون بما حولهم على هذا النحو . وسوف نبين لاحقاً أن هناك شيئاً أعلى من

الغيبة ، وأن ما يعرض على أولياء الله في الواقع هو ذلك الشيء .

١٠ ، ١١، ١٢، ١٣ . الذوق ، الشرب ، الري ، السكر:

يقول العرفاء أن مجرد الاطلاع على شيء ما ، لا يكون فيه أية جاذبة أو ميل ، فالشوق والانجذاب فرع التذوق . وقد أورد ابن سينا في أواخر النمط الثامن من «الاشارات» هذا المطلب وأعطى عليه مثال «العنين» . فالعنين لا يقدر على ادراك وفهم حقيقة اللذة الجنسية لأنه فاقد لهذه الغريزة ولم يتذوقها من قبل فمهما وصفنا له هذه الحالة لن يشعر بأي نوع من الشوق والانجذاب .

فالذوق هو شعور باللذة . والذوق العرفاني هو الادراك الحضوري للذات الحاصلة من التجليات والمكاشفات . وهذا الأمر يكون في البداية «ذوق» ، فاذا استمر يصبح «الشرب» ، ليتحول بعدها إلى «السكر» . فاذا شبع منه وصل إلى «الري» .

ويعتقد العرفاء أن ما يعرض من الذوق هو «تساكر» لا سكر ، وما يعرض من الشرب هو السكر ، ولكن الحالة التي تحصل من الري هي «الصحو» .

ولهذا الأمر نجد في كلمات العرفاء الحديث عن الشراب والخمر كثيراً .

١٤ ، ١٥ ، ١٦ . المحو ، المحق ، الصحو:

يكثر الحديث في كلمات العرفاء عن المحو والصحو . وهم يقصدون بالمحو أن العارف يصل إلى مكان يُمحى في ذات الحق ويفنى عن ذاتــه ، أي أن «الانـا» تمحى منــه ، وعندها لا يدرك كالآخرين هذه الأنا .

واذا وصل المحو إلى درجة لا يبقى فيه أي أثـر للأنـا يسمى «المحق» . وهذان المقامان أعلى من مقام الغيبة التي أشرنا إليها . فالمحو والمحق فناء . ولكن العارف يمكن أن يرجع من حـالة الفنـاء إلى البقاء . ولكن دون أن يتنـزل من الحالة الأولى ، بل أن يصل إلى مقـام البقاء بـالله . وتسمى هذه الحالة «بالصحو» .

١٧ . الخواطر:

يسمي العــرفـاء تلك الالقــاءات التي تـرد على قلب العارف «بالواردات» . وتكون هـذه الواردات أحيـاناً بصـورة القبض أو البسط أو السرور أو الحزن وأحياناً بصـورة الكلام والخطاب ، أي أنه يشعر وكأن أحـداً يخاطبـه من أعماقـه . وتسمى الواردات في مثل هذه الحالة «بالخواطر» .

وتحـدث العرفـاء كثيـراً عن الخـواطـر . وقـالـوا بـأن الخـواطر قـد تكون رحمـانية ، وقـد تكون شيـطانية وأحيـاناً نفسانية ، وأحد المخاطر هو هذه الخواطر . ويمكن على أثر

الانحراف والزلل أن يتسلط الشيطانُ على الانسان ، كما جاء في القرآن الكريم :

﴿وإنّ الشياطين ليوحون إلى اوليائهم﴾ . (الانعام/١٢٦) .

ويقولون بأنه يلزم لتشخيص حقيقة هذه الخواطر وجود انسان أكمل . والمقياس الاساسي هو أن ننظر إلى هذه الخواطر بماذا تأمر وعما تنهى . فاذا كان أمرها أو نهيها خلاف الشريعة فهي قطعاً خواطر شيطانية .

﴿هل انبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفّاك أثيم﴾ .

(الشعراء/٢٢١ ، ٢٢٢) .

١٨ ، ١٩ ، ٢٠ . القلب ، الروح ، السر :

يعبر العرفاء أحياناً عن ذات الانسان «بالنفس» وتارة «بالقلب» وطوراً «بالروح» وأخرى «بالسر» . فإلى الفترة التي تكون ذاته أسيرة ومحكومة للشهوات تسمى «النفس» ، فاذا وصل الانسان إلى محل المعارف الالهية تسمى «القلب» ، فإذا طلعت عليه المحبة الالهية تسمى «الروح» . وعندما تصل إلى مرحلة الشهود تسمى «بالسر» . وبالطبع يقول العرفاء بمراتب أعلى من السر يسمونها «بالخفي» و«الأخفى» .

الفهرس



حارة حريك - خلف البلدية - تلفون : ٠٣/٨١٤٢٩٤
تلفاكس: ٠١/٥٤١٩٣٠ - ص.ب : ١١ / ٨٦٠١